يوسف صواق

موعد في بهو الانتظار

رواية

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة
في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون و الآداب

© منشورات الشهاب، 2009.
10، نهج ابراهيم غرفة، باب الواد، الجزائر.
www.chihab.com

ردمك : 978-9961-63-780-7
الإيداع القانوني : 1506-2009

أنجز طبعه على مطابع
ش.ذ.م.م. مطبعة الشهاب
ع. ڤرفي - باتنة

يوسف صواق

موعد في بهو الانتظار

رواية

منشورات الشهاب

[لو أنّ كلّ إنسان لم يحارب إلاّ في سبيل ما يقتنع به شخصيّا لما نشبت حرب]

«ليون تولستوي»

على لسان أحد أبطال رائعته «الحرب و السّلام»

1

ريثما تتمّ مراسيم حضورها ، المرتقب بين اللّحظة و الأخرى، انشغلت برسم اللّقاء الذي سيجمعني بها في هذا المكان العزيز الغالي، بالبحث عن مذاقه، لونه، رائحته، وخمّنت أيضا كيف سيكون حجم الدّهشة و الانبهار؟ كيف ستكون كثافة الابتهاج وسمك الدّهشة ؟

الظّل والصّدى يحاصراننني في غياب الصّورة والصّوت، وددت اللّحظة لو أنّها حضرت فعلا، وعلى الفور، لتغمرني بعطرها الفوّاح الذي اعتادت أن تعبّق به جسدها ، كي أتشمّمه و أملأ به أنفاسي العطشى عن آخرها.

أدخّن سيجارة وأرتشف قطرات القهوة، ثمّ أسرح بعيدا في صمت، سادراً مع الحلم الورديّ المخمليّ الجميل.

أبصرتها قادمة و هي ترفل في فستانها الأحمر القاني، و بيدها حافظة جلديّة ورديّة اللّون، تهتزّ متأرجحة يمنة و يسرة، بدت لي أكثر عنفوانا من ذي قبل، وأشدّ أناقة وتألّقا ممّا كانت عليه.

كان من الطّبيعيّ جدّا أن أكون أسعد ما أكون، مبتهجا بكلّ هذه النّضارة الفاتنة التي قبالتي، والتي نادرا ما تجود

بها الطّبيعة : عينان في لون المروج، وشفتان في لون الفراولة، وشعر كلون اللّيل المشعّ، ووجه نيّر كأنّه إشراقة الصّبح.

يغزو ضجيج الشّارع الخلفيّ المكان، تهاجمه روائح النّهار وتشعّه الألوان، وتملأ بطحاءه الأشباح، فلا أبالي ولا أأبه، الوقت لديّ اللّحظة منسوج بمتعة انتظاري لها، و أقلّ حلمي الآن أن أعانق طيفها الجميل الرّائق المشهد، في انتظار إطلالتها الرّائعة الأخّاذة.

وجدت في طيفها طاقة إضافيّة، أتزوّد منها عند الحاجة، متّسعا من التّفاؤل أغرف من منهله، كلّما اقتضت الضّرورة ذلك، ألفته ملاذا لي يذود عنّي السّقوط في مهاوي اليأس، والانحدار نحو وهادِ الإفلاس و الخيبة و الإحباط و الاضمحلال و التّلاشي تماما.

الطّاولة التي اعتادت الجلوس إليها بمعيّتي، تشهد اللّحظة غيابها، السّيجارة تحترق بين أصابع يدي، تمتصّها شفتاي بشَرَهٍ مُغالٍ فيه غلوّا غيرَ مسبوقٍ و لا معهود قبل اليوم، لعلّها حرقة الشّوق و متعة الانتظار.

تحترق السّيجارة فتعقبها ثانية، و ثالثة، و رابعة، و..، بينما يمرّ الزّمن غير مبالٍ، مبديا حياده التّام بين طرفيْ نزاعٍ، لا يهمّه أصلاً أيّهما المنتصر فيه من المنهزم، في ما تواصل هي غيّها في تطرّف بيّنٍ، في حين أظلّ، أنا الحالم العاشق، أتخيّل أنّها بقربي، تجالسني وتتحدّث إليّ، كما لو أنّها معي جسدا و روحا، صوتا وصورة.

تنشر شعرها الحريريّ في الهواء، يعبث به في مودّة، وتمنحه لنسمات البحر المنعشة التي تهبّ بخفر، عربون ودّ ووفاء، بغتة تنطلق ضحكاتها الخفيضة كخرير الجداول و السّواقي، ليكون لها القلب مصبّا تفضي إليه في نهاية المطاف، وتضيء ابتساماتها فيشرق المكان كلّه بعد عبوس و جهامة.

أحسست أنّ تخديرا مغناطيسيّا يسري في أعماقي، و لاح لي أنّ روحي كما لو أنّها تسبح في فضاء رحب لامتناهٍ، ليس لي الآن، في غياب الصّورة، أكثر من رغيف الحلم أقتاته إبقاءً على الرّمق، و إحياءً لأمل بدأت جذوته تخبو رويدا رويدا، لعلّه إلحاح الرّغبة في قدومها قبل الموعد، و لعلّه الشّوق إلى لقياها أيضا.

تأبى إلاّ أن تبرز في ذاكرتي، بكلّ قوامها الممشوق ذي الكعب العالي، وصدرها النّاهد، وشعرها النّاعم المتموّج، المنسدل إلى أسفل كتفيْها كذيل حصان برّي يأبى التّرويض دائما و أبدًا.

أراها تقفز نحوي كالفراشة الغاوية، وهي ممسكة بإحدى يديها حقيبتها الورديّة، المتدلّية من كتفها، أذكر أنّني كنت قد قدّمتها لها، ذات يوم بعيد، هديّة بمناسبة عيد ميلادها، يشرق لي فانوس وجهها الوضيء، و هي تدنو من مجلسي بخطوات مضبوطة على إيقاع هذا النّابض الولهان، تبرق إليّ بابتسامات موغلة في الإيجاز، الدّالّ على المدلول بما فيه الكفاية و الشّفاية، قليلة الكلام ولكنّها نضرة، حييّة، مومئة بالرّغم من ذلك كلّه.

عندما ننتظر عزيزا، نتوق لرؤياه و التّحدّث إليه، لمعانقته و ضمّه بعد طول فراق أو غياب، عادة ما ندفع فاتورة الانتظار من دموعنا، و أحيانا، و هو الأخطر، يكو ن الدّفع من دمائنا المستباحة المراقة بغير وجه حقّ، يكون التّسديد بالجملة لا بالتّقسيط، باهظ الثّمن.

أُوالي إغماض عيني على حلم حضورها الورديّ، أنجذب نحو مدخل قاعة الشّاي علّي أُبشّر بإطلالتها، مثل فراش يأخذه الضّياء السّنيّ المتوهّج حدّ التّهالك، حضورها المتخيّل يشعّ بنور باهر، متألّق، رائق المشهد، أخّاذ و نفّاذ، انبهرت له طواعية.

ابتسمت لها مبتهجا، في حين شدّت هي على يدي بحرارة، سرى في أوصالي دفؤها، ثمّ سرعان ما أقعدتها كسيّدة كبيرة على كرسيّها الشّاغر منذ حين ليس بالقريب.

أخيرا تجلس إليّ بعد تلكّؤ فيه غنج، مبعدة خصلات متمرّدة عن جبينها الوضيء، ليضمّني و إيّاها قارب الشّوق و الحلم، تجلس قبالتي بقميص أخضر مزهر، و فستان صارخ الحمرة، يتموّج قليلا كلّما داعبته نسمات البحر المنعشة، و قد عقدت شالاً ناصع البياض حول عنقها بشكل متراخٍ.

و اختصارا للوقت، و حفاظا على الجهدً، و دون مقدّمات كثيرة، راحت ترمقني بعينيها الشّفّافتين، الجميلتين، الآسرتين كالفجر المنبعث من الأفق القصيّ، تبتسم مديرة رأسها بدلال، يرنّ ضحكها الخافت في أعماقي، تشعل حرائقها بداخلي عن سبق إصرار و ترصّد، و هي توالي ابتساماتها الرّقيقة، الحانية، الغضّة، اليافعة.

تجرّدني من مسدّسي و تفرغ فوهته من أوّل و آخر خرطوشة، قدّرت عيناها أن لا تنطلق أبدًا، ثمّ تتضاحك بكبرياء و زهوِ مَنِ انْتصر، على نزال لم أكن فيه إلاّ طرفًا آخرَ، ينقاد إلى هزيمته غير المعلنة، ثمّ تغطّي وجهها بأناملها الرّقيقة، المزيّنة أظافرها بالأحمر، في محاولة تَشِي بشهوة الانتصار، تشوبها حمرة من الخجل، هكذا هي الأنثى حتّى في حالات الانتصار.

اللّحظة امتلكتني الرّغبة في لقائها للتّوّ، كانت تلحّ عليّ إلحاحا لا إبطال لمفعوله، زرعت فيْ ألغاما من الشّوق قد تنفجر في أيّة لحظة، لها سطوة بحجم الأقدار مجتمعة، تمنّيت لو أنّني أحوز على مصباح مثل مصباح علاء الدّين، لو أنّني أمتلك خاتما كخاتم سليمان، آه، لو كان ذلك في متناول اليد، لو كان الأمر كذلك حقّا و صدقا، قولا و فعلا، لأمكنني، ساعتها، المجيء بها على الطّائر، و إحضارها بسرعة البرق إلى هذا المكان، الذي اعتدنا أن نرتاده معًا.

آه، وا حرّ قلباه !

آه، آه على الأماني لو تتجسّد في واقع الأحياء و الأشياء، لو تتحقّق حقيقة و واقعا لا خيالا و حلما..!

2

أنتبه إلى نفسي في لفتة غير مقصودة، حين أبصر شبح النّادل متّجها صوب إحدى الطّاولات، المحاذية لطاولتي التّعسة التي تمرّ بأحرج اللّحظات، أومئ إليه في حركة غير محسوبة، أطبَق عليها صمت جنائزيّ، كنت كمن فقد إحدى حواس الاتّصال بالعالم الخارجي.

يتقدّم نحوي بعد فراغه من تقديم الخدمة للزّبون المجاور، أطلب منه أن يقدّم لي قهوة ثقيلة بدون السّكّر، بصوتٍ منْ يرتادُ المكانَ لأوّل مرّة، بَدَا الصّوتُ مبحوحا، مشروخًا، متخاذلاً، هزيلا، مرهقا حدّ التّهالك.

ينصرف على الفور لإحضارها، بعد لحظات يأتي بها إليّ مهرولاً، و يضعها بسرعة و خفّة على سطح الطّاولة كالخادم المطيع، باشّ الوجه دائما، ثمّ سرعان ما يعود أدراجه، خفيف الحركة رشيقها، و يظلّ يحوم حول الطّاولات، يطوف و يسعى بين صفوف الجالسين مثل النّحلة.

كان الحضور على موعد مع بعضهم بعضا إلاّي، غيابها الملحوظ لا تخطئه عين، يملأ كلّ المكان، يجثم على صدري، يثقل قلبي مثل شجن لا ينتهي إلاّ على بدء، كهمّ مقيم لا يكاد

يبرحني، و بين متعة التّرقّب و ضجر الانتظار، يمرّ الوقت بطيئا، مملاّ، و جارحا أحيانا، و ربّما قاتلا، في حين أظلّ أنا أتوجّس خيفة من عدم حضورها، نهبا لهواجس تكتسحني كالموج الكريه، دون أن أقوى على ردّ صولتها، أو حتّى صدّ غائلتها.

عقارب السّاعة يتوالى تقدّمها، لا يهمّ إن كانت تزحف، أم أنّها كانت تركض، الأهمّ أنّ مركبتها ظلّت توالي تقدّمها، و عجلاتها ما انفكّت تواصل الدّوران في غير ما ملل أو كلل، معلنة عن قرب انتهاء موعد قدومها في حياد صرف، أمّا أنا فأكابر و أعاند، ممنّيا النّفس بمجيئها بعد لحظات من الآن، أأبى إلاّ أن أتشبّث بأمل حضورها، كأنّ قوّة غيبيّة، لها سطوة القدر، تشدّني إليها شدّا ليس لي منه فكاكا و لا انفلاتا، فقد رحت أتطلّع، بين الفينة و الأخرى بكلّ حرقة الشّوق، علّ شبحًا يلوح لي عند مدخل قاعة الشّاي هذه.

لِمَ لَمْ تأتِ حتّى الآن !؟

ما الذي منعها من الحضور !؟

و الموعد هل سيؤجَّل توقيعُه، أيظلّ من غير توثيق، أم تراه سيُلغَى نهائيّا من أجندة المواعيد، على غير ما جرت به العادة ؟!

الأسئلة حارقة تنزل عليّ كالسّوط اللاّهب، تغمرني كالسّيل الجارف، و أفكار كأنّها اللّعنات تتزاحم في رأسي، و تتراكض بداخلي كخيول برّيّة، تشي بكثير من السّواد الكالح، و تضنّ بالبياض النّاصع، مثل أيّ بخيل في الدّنيا، يعزّ عليه أن يقدّم أشياءه الثّمينة هِباتٍ و عطايا على مستحقّيها، حتّى و إن

كانوا من أقرب المقرّبين إليه، فما بالك بالأقاصي من الغرباء و عابريْ السّبيل، و في المقابل يأبى خطّ الانتظار إلاّ أن يمتدّ و يتمدّد إلى ما لانهاية.

أجلس وحيدا يجترّ وحدته، يلوك أحزانه، مشتّتا بين الحضور و الغياب، منفردا يعانق يتمه في صمت دفين، ضائعا بين العتمة و الإشراق، منجذبا بين النّور و الدّيجور، ممزّقا بين رغبتين متضادّتين قاسمهما المشترك التّنافر و التّناحر ليس إلاّ، كلتاهما تتحامل على الأخرى بشراسة وحش ضارٍ، و تناصبها العداء جهرا في حمأة الصّراع، متأرجحا بين شيئين كلاهما يناقض الآخر مبنى و معنى، تائها بين نصّين يتنافر الشّكل فيهما مع المضمون، أحدهما ممكن الحدوث، أمّا الآخر فمستحيل الوقوع.

أرتشف قطرات القهوة، ألاحق كومات الدّخّان الرّماديّة المتطايرة في الهواء، أرنو إليها ساهما بضع ثوان، ثمّ، كما يحدث في الحلم تماما، سرعان ما تتوارى و تتلاشى بعد حين، فيرتدّ إليّ البصر خسيئا، ذليلا، خائبا، مدحورا، منكسرا و معذّبا بأكثر من حسرة ملتاعة.

لن أذيع سرّا إن قلت أنّ قاعة الشّاي هذه، قد شرعت تفقد الكثير من بريقها في نظري، منذ أن سجّل المكان غيابها، لم يعد هذا الفضاء جذّابا، و لا شاعريّا على عهدي به.

أذكر أنّه كان، قبل اليوم، واحة ظليلة، فيحاء في حضورها، و لكنّي لا أراه الآن إلاّ أرضا جرداء، مقفرة، جدباء لا تكاد تصلح لشيء، كان حضورها في ما مضى يظلّل الأحياء

و الأشياء بظلالها الوارفات، يعبّقهما بطيب رائحة جسدها النّفّاذة، المتميّزة.

هذا هو الموقع الأثير إلى نفسها، لا تستعيض عنه ببديل، فقد سبق لي، ذات مرّة، و أن طالبتها بتغييره، من قبيل تجديد المكان و تهويّة فضائه، ليس أكثر من ذلك، بيد أنّ كلّ المحاولات، على كثرتها، باءت بفشل ذريع، كان تمسّكها به كاحتفاظها بكلّ المواعيد السّابقة التي جمعتنا، باستثناء هذا، ربّما.

منذ ذلك الحين لم أعد أسألها هذا السّؤال، فقد بدَا لي أمرا سخيفا أن أملأ به أذنيْها، كانت رغبتها أكبر من مجرّد التّفكير في رفضها، لذا رأيتني أتنازل عند إرادتها، و أسحب طلبا كان مجرّد مسودّة لاقتراح غير ملزم.

هذا مقعدها الغالي التي اعتادت الجلوس عليه، ما يزال شاغرا حتّى الآن، ساكنا سكون الجثث المطمورة تحت الأرض في الحُفَر، قبل اليوم كان يضجّ بحركاتها و صوتها، كانت تملأه بأناقتها و رشاقتها، تعبّقه بعطرها الفوّاح، و تملأه بأنفاسها الدّافئة، و تغمره ببسماتها المشرقة و ضحكها الخافت المهدهِد.

أحرق السّيجارة التي بين شفتيْ، أعبّ منها النّفس تلوَ الآخر، أنفث دخّانها الرّماديّ ليندحر و يندثر في الهواء أخيرا، بعد بضع دقائق فقط مرّت عليّ من غير استئناس و لا ابتهاج، من غير استشعار للّذّة الموعودة و لا إحساس بالمتعة المرتقبة.

لا شيء يروق لي في غيابك.

لا السّيجارة المحترقة بي و فيْ، المتوّهج رأسها حمرة، و لا فنجان البنّ القابع على سطح طاولة، مغلقة على نفسها ببلاهة و بلادة، و كأنّ الصّمم و البكم قد أصاباها، أجلس إليها وحيدا بلا جليس مفترض، مثل أيّ صبيّ يعتصر اليتم قلبه كما تُعتصر حبّة اللّيمون، منفردا كبعير أجرب، لا أحد يكاد يدنو منه أو يخالطه و لو على مبعدة منه.

لا همهمة الحضور و لا همساتهم هذه المتّقدة وجدًا، و هم يتبادلونها كالتّحايا الحارّة، الصّادرة خالصة من القلب، و ينثرونها في ما بينهم كأزهار الياسمين، بكلّ حرارة الشّوق، بالوسع أن تعوّضني جزءًا و لو ضئيلا عن فقدي، و لا بالإمكان أن تستعيض عن غيابها هي ببديل.

هل كان عليّ أن أنسحب من ههنا، مثل أيّ لصّ سيّء الحظّ انكشف أمره، و شاع سرّه بين عامّة النّاس و خاصّتهم، بعد أن كان مطمورا في القاع، دفينا في الأعماق، مغلقا عليه بين أربعة جدران ؟

هل كان يجديني في شيء، لو أنّني لفظته مثلما تُلفَظُ النّواة، لو أنّني تواريت عنه و بشكل نهائيّ، حاسم، فاصل لا رجعة عنه، كما تتوارى الشّمس عن الأنظار عند المغيب.. ؟

و الآن.. هل قُدِّرَ لي أن أقضي ما تبقّى من نهار اليوم، و هو على وشك الرّحيل، بُعَيْدَ لحظات من الآن فصاعدًا، قد تطول قليلا و قد تقصر كثيرا، في انتظار مُمْضٍ لشخص لا يأتي، مثل أيّ سجين محكوم عليه بالمؤبّد، أدَعُ الوقتَ يمرُّ فاسحا له المجال على الرّحب و السّعة، ثمّ أظلّ أنا نَهَبًا للفراغِ و الضّياع و المتاهة ؟!

خيّم عليّ صمت جنائزيّ سرح بي بعيدا، كنت حاضرا و غائبا في الآن ذاته، أصوات الحضور و جلبة النّادل المعهودة، بحركاته السّريعة الرّشيقة و صوته الجهوريّ، و الموسيقى النّاعمة، الحالمة، الرّقيقة، و هي تنبعث متهادية، منسابة في هدوء البحر، حين تعلن أمواجه و لاءها للسّكون، كلّ هذا و غيره لم يعد يعني لي شيئا، بل صرت غير معنٍ به تماما.

بغتة دوّى أزيز عربة، تناهى إلى الأسماع عنيفا و قاسيا، تمرق طائرة عبر شارع «العقيد لطفي» الطّويل الذي يتوسّط حيّ «باب الوادي» و يشطره إلى نصفين، و هي تطلق صفيرا لعينا، لم يكن أكثر من نذير شؤم، ما فتئ يتنامى وقعه بكلّ الحدّة الموصوفة.

لا شكّ أنّ أحدًا قد هوى أرضا، تتضرّج جثّته دما بعد أن تلقّى رصاصة في الرّأس، أو رصاصتين في الصّدر، أو أنّ رهطا من القوم استهدفتهم سيّارة مفخّخة، انفجرت في وجوههم على حين غفلة، في مكان يعجّ عادة بالمارّة، لترديهم بين جريح و صريع.

و مع مرور الوقت، تحوّل الموقع الأثير إلى بركة، تحتضن كلّ أنواع الحشرات و الكائنات الحيّة الأخرى، أنتظر، ربّما، على مضض، بدلا من انتظاري لها، أحد المارّة، قد يمرّ من ههنا مصادفة، ليتكرّم بإلقاء حجر إليها.

هل هذا انطباعي الأوّليّ أم تُراه إحساسيّ الأخير ؟!

لست أدري، لا أملك إجابة مقنعة عن تساؤل، ما يزال عالقا حتّى إشعار آخر.

فهل تنتظرون كانتظاري ؟ و هل لكم أيضا أن تصبروا مثل صبري ؟

سنرى لاحقا.

3

لست أدري ما الذي يحدث حولي ؟

عبثا أحاول أن أدرك ما الذي يجري بالضّبط، عبثا أن أجد مسوغا معقولا، أبرّر به لا جدوى كلّ هذا الانتظار المملّ، الباعث على القرف فعلا، فقد صار، مع مرور الزّمن، عدمه كوجوده سواء، في حكم المؤكّد.

حاولت أن أتجاهل أنّني هنا، على موعد مع شخص عَلِقَ به القلب، في انتظار غائب لا يأتي تيّمني هواه، كان من المفترض أن يسجّل حضوره، حاولت أن أتناسى أنّني مسمّر هنا، و يدي على قلبي، أتحرّق شوقا إليه، أنتظر بنفاد صبر عائدا بعد منفًى اضطراريٍّ.

فكّرت، و لأوّل مرّة، في أن أنزع طيفها من ذاكرتي، أن أطرحه من قلبي مثلما تُطرح النّواة، و ألقي بصورته المرتسمة في ذهني، بعيدا عن خيالي، و لكن.. بقي انتظاري معلّقا إلى حضورها، مشدوها، مأخوذا بموعدها، فكان أن علّقت اليأس على مشجب الأمل حتّى لا يتداعى آخر ما تبقّى من تفاؤل، يسكن حشاشة الرّوح.

لست أدري كيف حدث ذلك بالضّبط !؟ لعلّ الذي حدث كان بقدرة قادر، و لم أكن أنا إلاّ أداة تنفيذ، موكلة بإنجاز مهمّة ما على عجل.

ينبغي إذن أن نحترق عندما ننتظر قدوم عزيز، غاب عن الأنظار بالتياع و شوق و تفاؤل أيضا، و علينا أن نقاوم اليأس الذي يسكن الأعماق، ببندقيّة نُفرغ فيه كلّ خراطيشها، قبل أن نتيح له فرصة الإجهاز علينا، قبل أن نتحوّل إلى لقمة يستسيغ طعمها، و علينا أن نواجه إلى آخر نفس عدوًّا، يستمدّ قوّته من ضعفنا نحن أصلا، حينما يداهمنا الموج الكريه، ليس لنا إلاّ قشّة النّجاة نتمسّك بها بقبضة من فولاذ، نشدّ عليها بالنّواجذ، كما يفعل أيّ غريق في الدّنيا.

هذا شعار يغري بالمقاومة، بيْد أنّ الميدان يبقى هو المحكّ، سيّد الموقف في النّهاية.

هذا جميل و رائع ! و لكن إلى متى !؟

هذا هو السّؤال الحارق، الجارح الذي كان يتعيّن عليّ طرحه، بكلّ الجرأة التي أملك، كان لزاما عليّ أن أسأل هذا السّؤال المصيريّ، الذي حاول طول الانتظار تجريده من محتواه، و إفراغ عمقه، و إسقاط علامة استفهامه المستفزّة، المتحدّية، و جعله مجرّد سؤال لطفل فضوليّ، عالق بلا جواب مقنع.

أجل، إلى متى !؟ إلى متى كلّ هذا الاحتراق و كلّ هذا الانتظار بلا جدوى تُذكر !؟

هل كان عليّ، قبل فوات الأوان، أن أخلع عنّي حلم قدومها المرتقب الذي ظللت، ربّما، كالأبله، عالق البصر إليه، لألقي

به إلى قاع جبّ غير مأسوف عليه، أو ألقي به إلى يمّ يقطع كلّ أنفاسه فيختنق، و لن يطفو بعد ذلك على السّطح إلاّ جثّة هامدة الأنفاس ؟ هل كان عليّ أن أقذف به من على جسر شاهق، ليلقى حتفه في هوّة سحيقة القرار، ترتطم جثّته بالأرض الصّلدة، و تتحطّم أشلاؤه ثمّ أمسح منه يدي و لن أعود إليه أبدا، أُفرِغ قلبي من هواه حتّى لا ترتادني شطآنه، كلّما تمطّتني لوعة الشّوق إليه، أو همّ بي اشتياق له و استبدّ بي وجع الحنين إليه ؟

ماذا كان يجب عليّ فعله على وجه التّحديد و التّدقيق ؟!

هذا سؤال مصيريّ لا أملك له جوابا حتّى الآن، معلّق هو الآخر ككلّ الأسئلة الحارقة، الموجعة في هذا الوطن الذي ترمّل أو يكاد.

هل كان عليّ أن أدعَه في البيت، في غرفة النّوم تحديدا، مهملا في خزانةٍ لحفظ الملابس، تقادم عليها العهد، بهت لونها و تآكل خشبها، أغلق عليه بعيدا عن الهواء و الشّمس و الخضرة، أحتفظ به للذّكرى فقط، مثل تذكار لا أعود إليه إلاّ بمناسبة، يدقّ ناقوسها في ذاكرة النّسيان، لتنبّهني إليه في زحمة الأيّام، في لحظة استدراك متأخّرة.

كان من الممكن أن تأتي، و لكنّها، في نهاية المطاف، لمْ تأتِ حتّى الآن على الأقلّ، كي لا أجزم و أقطع بما ليس لي به علم.

ظلّ غيابها جسرا شامخا، معلّقا بين الأرض و السّماء، غدَا سؤالا حارقا بلا جواب مقنع، طريقا بلا معالم، رسالة بعنوان

مجهول، أو خطابا بعنوان خاطئ، ضلّ طريقه إلى المرسل إليه في النّهاية.

كان من الممكن أن تأتي بشكل أو بآخر، و لكنّ أمر مجيئها تحوّل إلى ما يشبه المستحيل، صار نوعا من الطّلسم المستغلق الكنه، انبهرت له و احترت منه، و زاد من قلقي أن وجدتني مكتوف اليدين، أتفرّج على مصير أنا معنيّ به قبل غيري، بل طرف فيه على نحو من الأنحاء، عاجزا عن استجلاء حقيقة كنهه، و فكّ رموزه و أحاجيه.

عقارب السّاعة تتراكض مسرعات، معلنة عن انتهاء الموعد بفارق زمنيّ كبير الذي اعتادت أن تطلّ فيه عليّ.

همست لنفسي : «الغايب في حكم اللّه..»

ثمّ بعد برهة أردفت أقول متأسّيا : «أرجو أن يكون المانع خيرا»

هل هي محاولة منّي للغطّ على حقيقة، ناصعة البياض بالرّغم من مرارتها، ستظهر لاحقا ماثلة للعيان، أم تراها تعزيّة للنّفس المكروبة بعدم حضور الغائب جسدا، الحاضر روحا.

يمرّ الزّمن غير عابئ برغبتي المحمومة في رؤيتها، غير مكترث لوجع الانتظار الدّفين، و لوعة الشّوق التي يصلي لهيبها جوانبي، و أنا في انتظار إطلالتها البهيّة، الرائقة، المشرقة و الأخّاذة.

أواصل تشبّثي بأمل قدومها في عناد، و أتطلّع بين الفينة و الأخرى إلى مدخل قاعة الشّاي الوحيد، لعلّ شبحا يلوح لها، و بين حرقة الشّوق و متعة التّرقب، يمرّ الزّمن كعهدي به،

و أظلّ أنا كعهدي أيضا نهبا لهاجس يتجاذبه الأمل و انقطاع الرّجاء.

كلّما مرّ وقت إلاّ و توقّعت قدومها، في الدّقائق القليلة التّالية، ظلّ احتمال حضورها من غيابها الآن أحجية، لغزا لا يُفكّ، سرّا لا يَقبل الإفشاء.

أمامي الآن موعد مشرّع على المستحيل، مباح للضّياع.

هل بُرمج، يا ترى، منعها من الحضور في جنح اللّيل، بعيدا عن كلّ رقيب ؟ هل أُحبِطت عمليّة قدومها في وضح النّهار، عن سابق إصرار و ترصّد ؟

أكان ثمّة من كان يتقفّى أثرها، و يترصّد لها من مكمنه، و هي في غافلة عنه لا تدري أيّ مآل ينتظرها، مثل قنّاص يلاحق طريدته حتّى الإنهاك، ليُوقعَ بها في الختام ؟

تحوّلت إشراقة المكان إلى ديجور، هذا المكان الجميل و الرّائع، يتحوّل فجأة إلى فضاء، تملأ القتامة جنباته و ردهاته، انغلقت فيه كلّ النّوافذ، التي كان يمكن أن تتسرّب منها أشعّة شمس صبوحة، دافئة و حييّة.

بالرّغم من كلّ هذا الصّدأ، و كلّ هذا التهرّؤ، و كلّ هذا الشّرخ، يظلّ الوجد مشتعلا، حارّا، دافقا، متدفّقا، يبوح بما كان بيننا من وصال، لا زالت ذكراك العطرة، أيّتها الغائبة الحاضرة، موغلة فِيْ بكلّ حمّى الشّوق إليك، و حرقة السّؤال عنك، بكلّ التياع الحنين إلى عهد ولّى، لا تطاله مكنسة الزّمن في ما تطال، و إن باعد به العهد.

الغياب و الحضور يحيطان بي، يحومان حولي، بل يطوّقانني، يأخذان بخناقي، يملآن سمعي بقصيد تتماوج مواويله بين اليأس و الرّجاء، بين التّشاؤم و التّفاؤل.

ماذا تريْنني،

يا حمامتي البيضاء،

يا زرقة البحر و السّماء،

يا سنبلتي الخضراء !؟

لست أكثر من عصفور مذعور، أمسك عن التّغريد،

يقبع خلف قضبان قفص ولجه مكرها،

يرتجف خوفا برهة، و يثب متذمّرا برهة أخرى..

لست أقلّ من قارب تائه وسط يمّ متلاطمة أمواجه،

بعد أن داهمته عاصفة هوجاء لتفقده وجهته،

فإذا به و التّيه توأمان..

مرج طاله الجدب فذوت كلّ خضرة فيه سريعا،

بعد أن أينع و أورق و أزهر..

أتنفّس هواء المكان في غيابك الذي طال فوق اللاّزم، فلا أشعر إلاّ بمزيد من الغثيان، ولا أحسّ إلاّ باختناق مضاعف، كلّ الأصوات في غياب صوتك الأحلى و الأشهى، الأرقى و الأنقى نشاز، ترانيم منهكة النّبرات، و وصلات متراخية الإيقاع، كلّ الوجوه في غياب وجهك المليح سحابات تنطوي على الخواء، غيمات حبلى بالعقم.

تختلط الأشباح و الهمسات و الظّلال بعويل القلب المعنّى، أتململ كمن تعتعه السّكر، أتيه كمدلج في صحاري العمر،

و حين أوشك أن أتهاوى صريعا ، يتلقّفني الحلم في لحظة لم تكن في الحسبان.

4

أربكني تأخّر موعد قدومها، الذي تمادى حدّ القرف، و لكنّه بالمقابل، لم يستطع أن يطفئ فيْ جذوة التّرقّب و حرارة الانتظار، و لا أن يبتر شغف التّطلّع إلى إطلالتها، بل أكثر من ذلك، أخذني الإصرار على لقائها إلى أبعد مدًى ممكن.

ازداد التّعلّق بحضورها، و تمكّن من شغاف القلب، مهما يكن من أمر، و ازداد التّشبّث بوميض الأمل في مجيئها، رغم بدء خبوّ جذوته، جموح الرّغبة أكبر من أن يُروَّض، كانت للرّغبة سطوة القدر لا تقاوَم، تلحّ عليّ إلحاح غريق على طلب النّجاة، يوشك اليمّ أن يبتلعه موجه الهادر، ليس إزاءه سوى قشّة يتمسّك بها حتّى آخر قواه.

تُرى ما الذي عطّلها عن المجيء ؟

لماذا تأخّرت كلّ هذا الوقت، الضّائع من عمر حلم، في بداية خطواته الأولى ؟

و هذه الإشتعالات و الحرائق من يطفئ أوارها المضطرم ؟

من يجعل نيرانها بردا و سلاما عليّ ؟

هل تأتي ؟

السّؤال الحارق يعاود نفسه، وما من إجابة مقنعة تفي بالغرض :

و إذا لم تأتِ ماذا تراني فاعل ؟ كيف سيكون موقفي ؟

لماذا لم تأتِ حتّى الآن ؟ ما الذي منعها من الحضور إلى غاية هذه اللّحظات، المهدورة مجّانا من موعد جاوز توقيته بكثير ؟

انهالت عليّ الأسئلة حارقة كالسّوط، يلهب تجاويف الذّاكرة، و قرص الشّمس المصفرّ، شرع ينحدر جهة الغرب.

في الحال عنّ لي أن أنزل إلى الشّاطئ المحاذي للنّادي، كانت لديّ نيّة الاستلقاء على رمله النّاعم الملمس، و تتبّع حركات النّوارس البيضاء الأخيرة، فوق الموج الهادر، و لكنّ خيالها القابع في زوايا الذّاكرة، ألجم رغبتي في مغادرة المكان، و كبح من جماحها المباغت.

هل كان عليّ أن أنتظر ليلا آخر، كي يسفر عن وجه صبوح لنهار واعد مشرق !؟

كلّ هذا الفيض من الوجد، كان كافيا كي يتولّد لديّ، شعور آخر مشبع بالتّحدّي، مفعم بالمقاومة، مواجهة الغياب حتّى النّهاية، بحضور بدأ يتنفّس بعد اختناق كاد يودي به، و يستيقظ بعد سبات عميق، و ينتفض كالمارد الجبّار بعد همود و خمود و جمود و ركود.

في قاعة الشّاي هذه القابعة قبالة البحر، كنّا نجلس معًا، نتناول عصير البرتقال ممزوجا برائحة اللّيمون وماء الزّهر، نثرثر، نتضاحك، نفيض في البوح والنّجوى، ننسج أحلامنا

المشتركة بمغزل الشّوق والهوى، نخوض الحديث في شؤوننا الصّغيرة و الكبيرة معًا، في انتظار يوم الفرح الأكبر، ثمّ نسرح بعيدا مع زرقة البحر.

كان من الممكن أن تأتيَ، ولكنّها في الأخير لم تأتِ، ظلّ غيابها دربا مغلقا، نفقا معتما، طريقا بلا معالم، كرة في ميدان من غير مرمًى تُوضَع في شباكها.

حاولت أن أتحرّك، بيد أنّ قدميْ لا تستجيبان، فلم أجد بدّا، بعد هذا التّخاذل، من معانقة طيفها، أستعيد لقاءً انْصرم يومُه، و أمنّي النّفس بلقاء آخر لا يأتي، يأبى أن يعلن عن حضوره، وكأنّ الجسر الموصول بين الضّفّتين ملغوم، محفوف بمخاطر شتّى.

مع مرور الوقت ازداد تخوّفي، وتضاءل أملي في مجيئها، و رأيت في لحظة يأس مداهمة، أن لا ضرورة إطلاقا لانتظار بدأ البرد القارس يثلج مفاصله، و يفقده حرارة اللّقاء، و يجرّده من حرقة الشّوق، ويقتل فيه متعة التّرقّب، لاح لي أن لا جدوى من أن أنتظر غائبا يتمادى في غيابه، ربّما، بساديّة قاتلة، وأن لا معنى قطعا لكلّ هذا الانتظار الأخرق الأحمق.

شيئا فشيئا وجدتني أنزلق نحو مهاوي التّوجّس، أخوض معتركا فاحم السّواد، يعجّ بالرّياح الهوجاء و العواصف، أنقاد طواعية إلى شكوك اليأس، بعد كلّ هذا الانتظار الخرافيّ، و بعد كلّ هذه الصّكوك من الصّبر التي قدّمت تلقائيّا، و أحيانا كرها، طمعًا في حضورها، طول الانتظار و الصّبر عليه وتّرا أعصابي، و أنهكاها حدّ الإرهاق.

المقلق أنّها المرّة الأولى التي تتخلّف فيها عن الموعد، فلم يحدث و أن تأخّرت كلّ هذا التّأخّر الباعث حقّا على الحيرة، حاولت أن ألتمس لها الأعذار بحجّة أو بأخرى، أن أجد لها مبرّرا معقولا لموقفها هذا، غير أنّ سحابات الشّكوك غطّت على كلّ شيء، و لم يعد هناك في سماءٍ كانت في البداية مشرقةً، صافية، إلاّ غيومًا تحجب الصّفاء و الإشراق عن الرّؤية، و تمنع عنهما إطلالتهما على الأحياء و الأشياء.

في ما سبق كانت تسجّل حضورها تماما عند الموعد المحدّد سلفا، و أحيانا يحدث و أن تأتيني قبل الأوان، فما معنى أن تتأخّر، هذه المرّة، كلّ هذا التّأخّر، و أنا أتلهّف شوقا لرؤيتها، كمن يتلهّف لشربة ماء، يطفئ بها حريق ظمئه، بنفاد صبر ويدي على قلبي.

هل أصابها مكروه و هي في الطّريق إليّ، ربّما، الاحتمال وارد لا ريب في ذلك، احتمال تصديقه، قد يكون أكبر من تكذيبه، فالقتلة، بالرّغم من انحسار نشاطهم الإجراميّ في الزّمان و المكان، ما يزالون ينصبون فخاخهم هنا و هناك، و لا أحد يدري من أين تأتي الضّربة القاصمة، و كأنّي بهم يوجّهون رسائل مشفّرة، مفادها أنّهم هنا و لم ينتهوا بعد، على نقيض ما كان الجميع يردّد ترويجا بأنّ الحالة الأمنيّة في تحسّن مضطّرد ؟

لاح لي أنّ ثمّة انقلابا مدبّرا، غير مستبعد وقوعه بعد كلّ هذا التّأخّر، انقلابا داميا لا نجاة منه إلاّ بقدرة قادر، بمثل هذا كنت أقدّر وأخمّن، تأخّرها الذي طال كلّ هذه المدّة، يكفي

أن يكون مؤشّرا دالاّ على صحّة مذهبي، فلا غرابة بعد ذلك، من أن يتراءى لي هذا المكان، كما لو أنّه مدفن لكلّ أشواقنا و أحلامنا أيّتها العزيزة ! يا أغلى من الرّوح..!

أخْوف ما يخيفني الآن أن يصير حضورك خيبة أمل، أجلّ من أن توصف، لا مناص لي منها و لا مهرب، هذه هي الحقيقة الوحيدة، و التي أعترف، أنّني لا أملك الجرأة على مواجهة وجعها، بعد أن أضحى حضورك أمنيّة صعبة المنال، أفقا قصيّا لا يدرك حتّى اللّحظة.

كلّ ما حولي الآن عفن، نتانة، قذارة يا شقيقة القلب ! يا زهرة الرّوح ! سعير من جحيم أخرويّ لا يطاق، ذرّات رمل كثيفة محمّلة بالحرارة، ثقيلة تملأ الأجواء، أغنيّة بصوت ناشز لمغنٍّ مبتدئ، يصعد الرّكح لأوّل مرّة، قصاصات ورق متطايرة في الهواء، كومات من الأوهام يتكدّس بعضها فوق البعض.

أحاول ثانية، و ربّما، ثالثة، أو...، لا أدري على وجه التّحديد و التّدقيق، البحث لها عن أعذار، أجل، لمَ لاَ و هي التي لم تخلف وعدا قطعته على نفسها معي، و لم تتخلّف عن موعد اتّفقنا عليه معًا، منذ أولى الخطوات التي قطعنا جنبا لجنب، في طريقٍ انْتهى بنا إلى منتصفه، و كان علينا أن ننهي شطره الأخير المتبقّى، و نبتعد عن مفترق الطّرق هذا.

أفكار شتّى تنشال عليّ، تموج في صدري، تتأهّب للانطلاق، ككلّ مرّة، تتزاحم في ذهني، تتراكض في تطاحن و تصادم، من يوقف تدفّقها الجنونيّ اللّعين ؟ من يرفع في وجهها إشارة قف !؟

5

كان لقاؤك بها مصادفة، فما أجملها من مصادفة !

هل تذكر ذلك اليوم البعيد القريب ؟

بلى، تذكره بكلّ حذافيره، ما يزال كالوشم مرسوما في الذّاكرة !

ما أروعه من لقاء ! و كأنّه نزل عليك حلما رائعا من السّماء، و هي كأنّها كانت في الخيال تنتظرك في مكان ما، على غير موعد مسبق.

صعدت إلى الحافلة بكلّ أناقتها، و المحفظة البنفسجيّة اللّون تتأرجح في يدها اليسرى، أرادت الجلوس فلم تجد مقعدا شاغرا، عدَا المقعد الذي بجوارك، و كأنّه كان في انتظارها، تلقي إليك نظرة عابرة، أحسست ببريقها قد نفذ إلى القلب، ثمّ تجلس بمحاذاتك دون أن تتفوّه بكلمة واحدة.

و في غضون ذلك، صمت مطبق يسود الأجواء، ثمّ سرعان ما تنطلق الحافلة بعد دقائق، عقب التحاق طلبة آخرين بها، و هم يتأهّبون للالتحاق بمعاهدهم هذا الصّباح، أدركوها متأخّرين نسبيّا، معظمهم كان وقوفا.

ساعتها كنت منهمكا في قراءة آخر ما نُشر لك من شعر، في الصّفحة الثّقافيّة ليوميّة معروفة، في أثناء ذلك، و أنت في فسحة مع الصّور و الألوان و الإيقاع و الأخيلة الجميلة و الرّؤى القصيّة، لم تكن تدري أنّها كانت على نحو ما، تقاسمك لذّة النّصّ، بنظرات كانت تلقي بها خلسة تقريبا، بشكل لا إراديّ، و على نحو من فضول، لا يصدّ إغراؤه و لا يُقاوم، فتنها المعنى و المبنى معًا، أغواها الشّعر فتابعت متعة التّلصّص، دون أن تشعر بذلك هي نفسها.

و حين هممت بتقليب الصّفحة، بعد فراغك من قراءة آخر ما جاء في القصيد، فاجأتك بطلبها متودّدة، راجية أن تمهلها بعض الوقت، كي تأتي عليه حتّى النّهاية هي الأخرى.

ناولتها الجريدة برمّتها، في شيء من الارتباك ساورك بغتة، و تركتها تبحر مع ما تبقّى من نبضات قلبك، و نفثات صدرك، و ومضات ذهنك.

كانت تهزّ رأسها هزّات خفيضة، من أعلى إلى أسفل، توالت متقطّعة بين الفينة و الأخرى، و هي مأخوذة بالنّصّ في ابتهاج مَن ظفر بشيء نفيس، لا يُقدّر بكلّ أموال الدّنيا و كنوز قارون، دون أن تنبس ببنت شفة.

سرّك أن تُلْفِيَها على تلك الحال من الغبطة و الانبساط، حبورك جعلك تنتشي طربا لإعجابها، الذي أوشت به إيماءات رأسها تلك الخجولة بعض الشّيء.

اغتنمتها فرصة سانحة، لتسترق النّظر إليها، بين لحظة و أخرى، و قد استغرقها شعرك كلّية، و ملك عليها

كافّة حواسها، و أخذ بمجامع قلبها الرّهيف، الرّقيق، الحسّاس.

انشغلت تنقّل طرفَيْ عينيك بين وجهها، و الصّفحة التي كانت تمعن النّظر فيها، و تحتضنها كصديق حميم،كأنّها كانت على صداقة سابقة معه، من زمن ليس بالقصير.

مرّت لحظات وددت في قرارة نفسك، لو تطول و لا تقصر، لو تتواصل في مدّها إلى ما لانهاية، تعاد و تتكرّر و لا تنتهي إلاّ على بدء، تمنّيت لو انشغلت فقط بتملّي وجهها النّضر، تسرح في مرابعه الغنّاء، تماما مثلما تسرح الشّويهات مطمئنّة، بين الخضرة البهيجة المترامية الأطراف، الممتدّة على مدى البصر، في مسرّة لا صنو لها.

تهت ببصرك وسط تلك الخضرة الرّائعة، الرّائقة المشهد، يتملّكك انبهار صاعق بجمالها الآسر.

تراءى لك وجهها في وداعة الحمل، يقضم عشبًا أخضرَ نديًّا، في حقل معطاء خصب، و في سكون اللّيل المتلألئة نجومه، المقمرة سماؤه، و في هدهدة أمواج خافتة، تترامى إلى الشّطّ منسابة في رقّة، ثمّ تنسحب متراخية، لتعاود معانقة الشّطّ مجدَّدا، حين تأخذ البحر إغفاءة لذيذة حالمة.

مشرقا كان وجهها إشراقة النّهار، في يوم وسيم بهيّ الطّلعة، عجّلت بقدومه أولى تغاريد الطّيور، و هي تصدح طروبة متناغمة، صافيا صفاء مرآة من بلّور، ناعما نعومة الحرير.

لمحت ابتسامة خافتة، متراخية في غنج و دلال، أحلى من السّكر، و أشهى من العسل، ترتسم بإغراء على وجهها النّيّر.

تزداد الابتسامة الخجولة، شبه المتوارية اتّساعا و تمدّدا، بانفراج شفتيها المتورّدتين، و إذا بالسّحنة تشّع سناء، و إذا بالملامح تضجّ ابتهاجا رائعا، و إذا بالوجه كلّه يرسل برقيات نورانيّة، و ينشر في الأجواء دفءا في منحة مغرية العطاء مغدقته.

أشرق وجهها كلّه، فأنار قلبك المعتم، مزيحا عنه آخر عتمات اللّيل المدلهمّ البهيم، و ما تبقّى من غبشه، و إذا بالصّبح يتنفّس أنفاسه الأولى.

اللّحظة أحسست بفيض من الدّفء، يغمر كلّ ذرّة من ذرّات كيانك، فما أسعدها من لحظة و ما أمتعها !

ما الذي يحدث يا ترى !؟

ما هذا الذي يحدث لك أنت بالضّبط !؟

شيء خفيّ، مبطن، مضمر الوجه، لا يكاد يبين، لا تكاد تتلمّسه، و لكنّك تشعر به و تحسّه، و إن لم يبلغ بعد شعورك و إحساسك به مبلغ الإدراك و الوعي.

ما كلّ هذا الوجد الذي صحا بغتة، من بعد سبات عميق !؟

أهو انقلاب أبيض، دبّر لك بليل، و أنت في غفلة عنه !؟

هل المرأة التي طالما تغنّيت بها في أشعارك، و جعلت أنوثتها ملء البصر و ملء السّمع، محرابا تتعبّد فيه مثل زاهد متنسّك، و آليت على نفسك أن تكون هاجسك الأوّل و الأخير في دنياك هذه ما حييت، تنبض لها في خلواتك نبضك المتواصل، تضخّ لها من قلبك في تواصل مع الحياة شهيّ و بهيج... هل هذه التي تجلس الآن إلى جوارك،

تقرأ لك بوحك المتوهّج، و اشتياقك الحارق، هي من كنت تعني !؟

هل المرأة التي كنت تراها في خيالك، مجرّد حلم ليس أكثر، تقرض لها الشّعر، مباهيا بها زرقة البحر و السّماء، و خضرة الأرض، و ضياء القمر، بعيدا عن صخب الأحياء و الأشياء، بعيدا عن ضوضاء اليوميّ الباهت، المغرق في الضّآلة و التّفاهة و الرّوتين، المعيد لنفسه في نسخ طبق الأصل، بعيدا عن عناء الدّراسة و متاعب التّنقّلات اليوميّة التي لا مناص عنها، بدْءًا بالحيّ و مرورا بالمعهد للتّلقّي و التّحصيل، ثمّ بالمكتبة للظّفر بمرجع قد يهمّك، هذا إن عثرت عليه، بعد طول انتظار في طابور لا أوّل له و لا آخر، فَانْتهاءً بالمطعم الذي لا يمكن الفوز بوجبة الغذاء فيه، إلاّ بعد انتظار غاية في الملل، قد لا تملأ العين في النّهاية.

هل المرأة الحلم هذه قد تحوّلت اللّحظة، و بقدرة قادر إلى و اقع، ها أنت ذا تراه مرأى العين ؟

آه، ما أغرب الصّدف !

هل هي حقّا جسد و روح، مبنى و معنى، كما كنت تتصوّرها دوما في مخيّلتك، أم أنّها كائن آخر يقيم في كوكب غير هذا الكوكب !؟

هل هي حقّا كما كنت تمنّي بها النّفس !؟

إن كان الأمر كذلك افتراضا، فهل هي لك، لك دون سواك..!؟

هل ستكون من نصيبك !؟ هل أنت من سيتشرّف بطلب يدها من والدها، ذات يوم بعيد قد يأتي!؟ أم تراها مجرّد محتالة

تبتزّك ابتزازا ، ليست أكثر من وهم و سراب !؟

كانت القصيدة طويلة، و لعلّها استحسنت طولها ، فقد ظلّت منهمكة في التّنزّه بين خمائلها ، و الاستظلال بواحاتها كلّما دعت الضّرورة ذلك، و في تنسّم هوائها الخالص النّقاوة، معيدة، في كلّ مرّة، ما أبدته من إعجاب سلف ذكره.

هذا قلبي،
وريقة يعلوها الذّبول،
تتهادى قبيل أن تسحبها الرّيح،
في الإرتجافة الأخيرة..
مركب تائه الخطو، في غمار البحر،
قبيل أن يأخذه الموج الهادر..
يترقّب مشتعل الوجد،
اشراقاتك الأولى،
عند انبلاج الفجر،
قبل أن يغتاله اللّيل، و يكفّنه دجاه..
هذا القلب قلبك !
طال الغياب في السّديم، فهل تأتين !؟
هل أسترجعك يا هزاري الذي أصحو على تغريده،
لحظة طلوع النّهار !؟
هل أستعيدك أيّها الظّلّ الهارب أبدا ،
ما بين ذراعي الممدودتين للخواء !؟
إنّي أنتظر يا معذّبتي !
يا حرقة الشّوق و لظاه !

يا طيفي الجميل !
في وهج الفرح المتهدّل الخضرة،
حرائقك و اشتعالات الوجد..

و بدورك لم تكن استثناءً، فقد كنت تعاود الغطس في بحيرة عينيها السّاحرتين، سادرا إلى عمق أعماقها، تكرّر الاستحمام في وجهها بتشهٍّ، بلذّةِ مَنِ انْتشى قلبه طربا، لأمر سرّه بالغ السّرور.

مضى الوقت سريعا، داهمك طوفانا و اكتسحك سيلا جارفا، حتّى أنّك لم تكن تدري كيف انقضى.

الحلم و الواقع تشاكل أمرُهما، و اختلطا عليك إلى حدّ لم يعد من الممكن التّفريق بينهما.

تهت معها عن نفسك و عمّا حولك، كانت هي الكوكب و لم تكن أنت فيه إلاّ مجرّة صغيرة، و كانت الهرم و لم تكن أنت فيه إلاّ لبنة من لبناته، و كانت هي الدّائرة و نقطة الانجذاب المركزيّة، و لم تكن أنت فيها إلاّ قوسا أو محورا.

لم يعد يشغلك سواها، ما من همّ إلاّها، و كأنّ قطار الزّمن قد توقّف، في هذه الأثناء الاستثنائيّة، عند محطّتها دون غيرها من محطّات الطّريق، كانت مشوارك و سفرك و رحلتك، لم تعد ترى، حين ترى غيرها.

كانت تقرأ بتلذّذ صبيّ، يظفر بعلبة شكولاطة، و بتشهّ صائم على موعد مع مائدة سيّدنا رمضان، و باستغراق زاهد متنسّك، معتكف في صومعته...

هذا الولهان المتيّم بهواك،

لك وحدك..
راية تخفق لك،
تعانق طيفك الصّبوح،
تلوّح لك بالبياض،
مرشوشا بحمرة الغسق..
أنت نبضه و دمه،
في أزمنة الصّقيع،
و ابتهاجات العصافير المنتشية،
في مواسم الخصب..
بدايتها عنبر و ختامها مسك، هذا ما كنت ترجوه رجاء خالصا، و من أعماق القلب.

6

ترفع رأسها نحوك، و هي تخاطبك في غمرة من النّشوة، مبدية مزيدا من الإعجاب المستفيض الذي تحوّل إلى إطراء بالغ :

«رائع ! مذهل !»

لذت بالصّمت، لم تحِرْ جوابا، وكأنّ الشّجاعة تخونك، لم تجد ما يناسب من الكلمات للتّعليق على قولها هذا، ظللت من فرط الدّهشة و الذّهول، كمَنْ نُزعت حنجرته و بُتر لسانه.

عادت تقول بعد لحظة صمت اضطراريّة، ربّما هي فرصة من ذهب لا تعوّض، منحتها لك في كرم لا يُضاهَى، لتستردّ من خلالها بعضا من شجاعة، خانتك في آخر لحظة، بعد بداية بدت موفّقة نوعا ما :

«لمن النّصّ !؟»

«و أنتِ، في رأيك، من يكون صاحبه ؟»

عاودت تصفّح الجريدة، في محاولة لاستدراك خطإ ما، كان يجب أن لا يقع، مع قليل من الفطنة.

رمت ببصرها رأسا إلى ذيل القصيدة، لتقرأ الاسم كاملا (جمال.....)

و كمن يستفسر عن سرّ مخبوء دفين، كأيّ كنز مطمور في مكان ما، يأبى صاحبه أن يفشي بموضعه، قالت بنوع من التّلهّف :

«هل هذا اسمك ؟»

«خمّني !؟»

عادت تقول متسائلة كرّة أخرى :

«لم تجب عن سؤالي بعد ؟»

«أدعوكي أن تحاولي اكتشاف ذلك بمفردك»

«النّصّ جميل للغاية، و ألحّ على التّعرّف إلى صاحبه»

«حاولي التّعرّف إلى صاحبه، علما أنّه ليس ببعيد عنكِ»

«آ، فهمنا الحكاية، كلّ الحكاية ! على أيّ حال، هذا ما شككت فيه، حدسي، في النّهاية، لم يجانب الصّواب، فحين لمحتك، منذ قليل، و أنت منكبّ على النّصّ، بشغف طفل حلم كثيرا بلعبة يمتلكها، تقع بين يديه فجأة، ليلهو بها أخيرا، يمكنني أن أؤكّد جازمة، دون تردّد، أنّه لك.»

و كمن يودّ أن ينهي مسلسلا، طال أمد حلقاته، بنهاية سارّة، قلت :

«صدقت، النّصّ لي، والاسم الكامل المدوّن أسفله أنا صاحبه.»

وفي الحين انفرجت شفتاها عن ابتسامة حلوة، أبانت عن صفّ أسنان متناسق، زانته نصاعة البياض، ضاعفت من

إعجابك بها، و جعلتك تزهو بنفسك، و تتخيّلك فاتحا يدخل مدينة من كافّة بوّاباتها، بعد أن دكّ أسوارها وهدّ قلاعها الواحدة تلو الأخرى.

مدّت إليك يدًا مصافحة، و بسرعة البرق، أحسست بتيار لمسها ينتشر كالكهرباء في أنحاء جسدك كلّه.

«تشرّفنا يا جمال !»

«الشّرف لي يا (..... !)»

«حياة، اسمي حياة..»

«اسم جميل، عاشت الأسامي يا حياة !»

«شكرا، هذا لطف منك !»

«تصوّر، من مدّة لم تقع عيناي على كلمات في منتهى الرّقّة و العذوبة و الرّوعة و العنفوان كهذه.»

كان عليك هذه المرّة، أن تخترق شرنقة الصّمت التي وجدتك ملفوفا بها كرّة أخرى، لشدّة الخجل الذي ساورك، بفعل مديحها و الذي ربّما لا تُراك أنّك جدير به كلّ تلك الجدارة، فكان أن قلت بتواضع من يعرف قدره، و لا يريد أن يدع فرجة، يتسلّل منها الغرور إلى نفسه :

«هناك شعر كثير، يا آنسة، أجمل منه بكثير، لست إلاّ قطرة في محيط.»

رمقتك بنظرة من يعاتب صديقا حميما، على زلّة وقع فيها خطأً :

«لا تستصغر موهبتك، ولا تدع التّواضع ينتقص منها، فأنت شاعر بكلّ المقاييس.»

« أمّا كوني شاعر، فهذا ممّا لا شكّ فيه، و لكنّي عند رأيي، لست أفضل من شعراء آخرين أكثر موهبة و مراسا و حذقا في قرض الشّعر، و لعلّي لست إلاّ في ذيل القائمة. »

« لا مجال للمفاضلة هنا، دع ذلك للنّقّاد. »

كانت تتصرّف معك بتلقائيّة عجيبة، أضحت موضع غيرتك، و بجرأة بالغة أثارتَا معًا رجولتك و استفزّتاها.

أحسست بسخونة تفور بداخلك، و بنبضات قلبك تتراكض في عجالة من أمرها، و بأنفاسك الحارّة تثقل.

لعلّ بعض الخجل يشفع لك، فلم يسبق أن وجدتك في موقف حرج كهذا، محاصرا بجمال فاتن، لا فكاك منه و لا مهرب.

و مضى وقت قصير، خيّم فيه صمت مطبق، و كانت الحافلة، في غضون ذلك، تواصل سيرها الحثيث، وهي على وشك استشراف محطّة « تافورة »، حين عاودت بلطف قولها :

« هل بوسعك أن تستنسخ لي صورة طبق الأصل لمنشورك هذا ؟ »

و بلهجة من يفز بجائزة قيّمة، قلت :

« بكلّ تأكيد، لا مشكلة أبدا.. »

و كمن يستدرك أمرا فاته، في أقصى أهمّيته، توجّهت إليها متسائلا :

« و لكن...!؟ »

لم تمهلك طويلا كي تتمّ ما تبقّى من جملتك، فقد قاطعتك للتّوّ، و ببديهة جليّة أجابت، مزيحة علامة الاستفهام التي تراءت لك للتّوّ :

« يمكننا أن نلتقي، عَصْر هذا اليوم، أمام مدخل المكتبة الجامعيّة، إن لم يكن هناك مانع طبعا، ستجدني في انتظارك هناك، قبالة مدخل المكتبة. »

وكمن يكتشف بالصّدفة شطرا من سرّ، ظلّ نصفه الآخر مستغلق الكنه حتّى الآن، قلت والحبور يملأ كلّ أحاسيسك و يغطّي على مشاعرك، كمن يريد التّأكّد من صحّة أمر، قابل للتّأويل كائنا ما كان :

« هل تدرسين هناك ؟ »

« أجل، فرع ترجمة »

و بابتهاج سارّ لا تريد البوح به، قلت و الفرحة لا تسع قلبك :

« أنا أيضا أدرس بذات الجامعة، فرع لغة و أدب عربيّ.. »

« لا فرق، المجال واحد تقريبا.. »

« ألهذا السّبب أراكِ مولعة بالأدب ؟ »

« أحبّ الأدب كثيرا، ولكنّي أموت حبّا في الشّعر، و الأدهش من هذا أنّني كنت أحلم، منذ الصّغر، أن أصير شاعرة.. »

« جميل ! رائع ! سأمتعك وأمتّعك به إذن.. »

« هل هذا وعد تقطعه على نفسك ؟ »

« وعد حرّ.. »

« في هذه الحال، هو ديْن عليك.. »

« اتّفقنا إذن.. »

« فلْيكن الأمر كذلك.. »

« و هو كذلك.. »

7

انغرزت أناملك في رأسك، تخلّل خصلات من شعرك، ربّما لخجل داهمك على حين غرّة، ثمّ قلت في قرارة نفسك : «هي الحلقة الأولى إذن من مسلسل طويل، حلقاته تعِد بكثير من الإثارة و المتعة و التّشويق، نهايته مفتوحة على كلّ التّوقّعات و الافتراضات..»

في هذه الأثناء تربض الحافلة عند المحطّة الأخيرة، المرصودة لها سلفا، الطّلبة ينزلون في تتابع، ينصرفون جميعهم و يتلاشون في الزّحام، يتوارون عن الأنظار إلاّها، يأبى طيفها إلاّ أن يتشبّث بالذّاكرة، و يقبع فيها بعناد، محتجزا له مكانَ إقامةٍ مفتوحة الآجال.

كنتما آخر مَن ينزل، استوقفتها قليلا كمن يتزوّد منها بآخر نظرة، في حين صوّبت هي نحوك سهما نفّاذا، حييّا، لا يخطئ مرماه أبدا، كان القلب له مرمًى، أسكنته في شباكه، حين غادرتما الحافلة، تأهّبا للانصراف، وأنت تلقي عليها آخر كلماتك، كمن يريد تأكيدا خطّيا :

«هل سنلتقي ؟»

«حتما، و بكلّ تأكيد !»

كانت كلماتها هذه بلسما شافيا، لشكوك ساورتك فجأة.

تلاقت يدكما من جديد، في مصافحة أخرى أكثر حرارة، و أنتما على وشك الافتراق على أمل اللّقاء، كنت قد أمسكت كفّها بكلّ الشّوق، و أخذت تضغط عليها بوجد حارق.

«باي !»

«باي !»

ظللت ترنو إليها مسلوب الإرادة، مأخوذا بانصرافها عنك، كمن يشيّع فقيدا لن يراه بعد اليوم، و كأنّ الشّكّ في لقائها ثانية ساورك مجدّدا، على الرّغم من كلّ الضّمانات التي قدّمتها لك، و كأنّها لم تكن كافية، شافية، وافية، بل منقوصة غير تامّة.

لم تتمالك أن ناديت عليها، معيدا ذات العبارة « إلى اللّقاء» كتوكيد لفظي، و تأكيد إضافيّ تجلسه كرسيّ الاحتياط، تأهبّا لاحتمالات قد تطرأ فجأة.

استدارت نحوك في التفاتة رائقة المشهد، توهّج لها وجدك، و على الفور لوّحت بيدك لها، في حين أخذت طريقها ثانية، انصرفت بعد أن أبرقت إليك بابتسامة عريضة، حييّة..

ظللت مسمّرا في مكانك، مشلول القدمين، و كأنّ قدميك تخونانك، لا تقويان على الحركة، في وقفة مَن يودّع عزيزا، على وشك السّفر، قد يطول غيابه، بنظرات ولهَى تضجّ شوقا، تبعث في نفسه متعة جارفة، ممزوجة بما يشبه الأسى الحارق، قبل أن تضيع في زحمة الطّريق، و تتوارى عن ناظريك، و كأنّ

ستارا قد نزل على تمثيليّة، ما تزال في طور بدايتها، استدعت إنزاله فترة الاستراحة، في انتظار أن يتجدّد موعد الفرجة ثانية، و ثالثة، و...، مع تعاقب بقيّة الفصول..

في طريقك إلى المعهد، ظلّ التّساؤل يتوارد إلى ذهنك تباعا المرّة بعد الأخرى : «هل يتوقّف الحلم بانتهاء المشوار و هو في طور البدء !؟ »

في المدرّج فاتك ما كان يردّده الأستاذ، فقد انشغلت بطيفها الذي راح يلحّ عليك إلحاحا، لا مردّ له و لا مهرب منه.

اكتفيت بعنوان المحاضرة دون ذلك، حسنا ! الأمر لا يستدعي القلق، ستجتهد على طريقتك، فأنت مولع بمصاحبة الكتب، تتصفّحها و تقرأها بإمعان، في لذّة لا عوض لها، و متعة لا بديل عنها، تستأنس بها و تأنس، في خلوات تطول و لا تقصر.

لقد كنت ترى الأستاذ، و لا تراه في الآن ذاته، تسمعه و لا تسمعه، خيّل إليك أنّ صوته، يأتيك من جبّ عميق القاع، في حين كان صوتها هي الأكثر بروزا و صفاء.

لم تكن تنتبه إلى ما كان يردّده المحاضر، فقد كنت في حالة شرود طاغية، ملكت زمام أمرك، مبعدة إيّاك عن أجواء التّدريس بالمدرّج الجامعيّ تماما.

كنت جسدا بلا روح، و كأنّك هناك خطأً، و كأنّك غير معنٍ بمحاضرة المحاضر، و هو يوالي عرضها و إلقاءها على مسامعٍ الحضور، من طلبة المعهد طبعا.

لقد وجدتك مأخوذا بطيف تلك الفاتنة العذراء، بعد أن انصرفت و تركت قلبا ينبض لها، و يحترق من أجلها، مشغولا بأصداء اللّقاء الذي جمعك بها صبيحة ذلك اليوم، في غير ما موعد مسبق.

«هل سنلتقي مرّة أخرى أم تراني لن أراها بعد اليوم ؟ هل هي واقع ماثل للعيان، أعيشه و أحياه، أحسّه و أتنفّسه أم تراه مجرّد حلم يراه النّائم فيما يرى، ثمّ بمجرّد أن يستيقظ يتلاشى مندثرا ؟»

الأسئلة تتوارد إلى ذهنك مندفعة، متلاطمة، مصطخبة كالموج الكريه.

«سنلتقي ! حتما ! بكلّ تأكيد.. !»

في قرارة نفسك، كنت تودّ أن تتمّ ما تبقّى منها مبتورا عنها، أن تطلق عقالها و تفكّ أسرها، كنت ترغب في أن تقولها لك صراحة دون ما مداورة، و دون ما تأجيل: «يا حبيبي (..... !)» ولكنّها الأنثى هي هكذا، على ما جبلت عليه، لا تتعجلّ ولا تستعجل البوح، تخبّئه في قلبها و تغلق عليه بعينيها، في انتظار الظّرف الأكثر مواتاة، و غداة اللّحظة المناسبة، من يوم الحسم و الحزم، تفشي بكلّ مواجدها دفعة واحدة، و تبوح بكلّ خفاياها تباعا الواحدة تلوَ الأخرى.

انساب صوتها الرّخيم، يملأ شغاف القلب، قبل أن يملأ طبلتيْ الأذنين، تناهى إلى مسمعك في منتهى الرّقّة، و النّعومة، و الصّفاء.

صوتها الحنون كوصلات «كليدرمان» هذه التي ما تزال تشنّف آذان الحضور، و تطير بهم إلى أجواء مغايرة، في مكان ما قصيّ، مدهش و مغرٍ، على جناحي الحلم و الشّوق.

صوتها الطّروب المحمّل بالدّفء، كهذه الموسيقى التي تنبعث هادئة، بهيجة، وديعة، حالمة، يغرقك بفيض من الحنان، يخترق الصّفاقة التي غطّت على قلبك سنوات، و تهتك حجب المتوارى عن الحواس، و تولجك عالم الوجد الأنقى و الأبقى و الأرقى، و إذا بك تطفو فوق سطح كوكب آخر، أرحب من كوكب البشر هذا، المدنّس بالأهواء و الأطماع الدّنيئة.

حبّ من أوّل لقاء، بل قل من أوّل نظرة، كنت تظنّه سيكون عابرا كسحابة صيف، محطّة من محطّات السّفر، ينزل عندها بعض المسافرين، ثمّ يواصل القطار رحلته حتّى النّهاية كالمعتاد.

لم تكن تظنّ، لحظة واحدة من لحظات ذلك اللّقاء، أنّ لقاءك بها و تعرّفك إليها مصادفة، سيتحوّل إلى قطار يعلو صفيره و يرتفع أزيزه، و أنّ السّفر معها سيطول.

أحسست أنّ شيئا ما بدأ ينبض لها.

أهو الإعجاب أم تراه شيء آخر، أكبر من ذلك و أخطر بكثير، شيء يسمّونه الحبّ، في منتهى البساطة !؟

يا أللّه !

يفعل الحبّ بالبشر أحيانا، ما لا يفعله السّحر بهم.

تقف عند عتبة الباب بكلّ أناقتها و رشاقتها، تمتدّ كفّها إلى المقبض، و برقّة و لطف تديره، فإذا بالباب ينفتح لها

على مصراعيه هادئا وديعا، مرحّبا بها، هاشّا في وجهها، ثمّ.. و في خفّة لصّ ظريف، حذر، يتسلّل إلى الدّاخل، يلج الغرفة حيث هذا الولهان، النّابض، المتشظّي باحتراقات الوجد، في انتظارها رغما عنه، و كأنّه على موعد مع القدر.

كيف انصاع لها القلب كلّ هذا الانصياع !؟

كيف وقع في الشَّرك المنصوب له، دون أن يحتاط و يحذر !؟

8

عصر ذلك اليوم كنت على موعد معها، على موعد مع حبّ جاءك بالصّدفة، وكنت وقتئذ حريصا أشدّ الحرص على أن تنتهز الفرصة السّانحة، فلا مجال للخطإ في تضييعها، لذا وجدتك في سباق مع الزّمن، ذلك أنّ امتحانات السّداسيّ الأخير من السّنة الدّراسيّة الجامعيّة على الأبواب، بما يعني أنّ العطلة على وشك الحلول.

و لقد تأسّفت على أنّ تعرّفك إليها تمّ متأخِّرا، تمنّيت لو كان ذلك في وقت متقدّم، ولكن، لابأس، فمازال أمامك بضعة أسابيع، عليك أن تحسن استغلالها على الوجه الأكمل.

كنت في طريقك إلى المكتبة الجامعيّة، بقلب مشوق إلى لقياها، حين لمحتها بالصّدفة رفقة صويحباتها، يتبادلن الحديث وقوفا عند مدخل الحرم الجامعيّ، عندها أحسست بقلبك يدقّ دقّات متسارعة، و بالانفعال يجوب سائر جسمك و يكهرب أعصابك تكهربا.

كنت ترمقها على مبعدة من مجلسها، تتحدّث إلى بعض الفتيات بابتهاج و انشراح، و مكثت واقفا تراقب المشهد عن كثب، تنتظر وقت انصرافها بين الفينة و الأخرى، و ذلك ما لم

يحدث، طال انتظارك لها، ربّما كان عليك أن تقدّم مزيدا من الانتظار حتّى تتاح لك فرصة لقائها.

وإلى تلك اللّحظات لم تكن تدري، إلى أيّة وجهة ستيمّم شطرها ؟ هل ستتقدّم نحو الحرم وتلجه إلى الدّاخل، ثمّ ستستحثّ خطاها صوب المكتبة، كما سبق وأن اتّفقتما، عندما تعرّفتما إلى بعضكما، أم تُراها ستتصرّف عكس ذلك، ستغادر الجامعة، مثلا، تاركة إيّاك هنا في انتظار الوهم، غير عابئة بك إطلاقا، وأنت تتلوّى شوقا للقياها !؟

داخلتك بعض الرّيبة، ساورك بعض الشّكّ في أنّها ستبقى على وعدها لك باللّقاء، كانت قد قطعته على نفسها، حينما تفارقتما صباح ذلك اليوم، و في المكان المحدّد سلفا..

بنفاد صبر كنت تنتظر فراغها من تلك المحادثة، التي كنت تخشى أن تطول، أن تأخذ لها منعرجا آخر، قد تسحب البساط من تحت قدميّ الموعد تماما، فلا يكون ثمّة لقاء، و لا شيء آخر من هذا القبيل على الإطلاق.

طال الانتظار، و حديثها مع رفيقاتها لا يكاد ينتهي إلاّ على بدء، و لعلّه الآن في أولى بداياته، واعدا بكلّ المتعة و التّشويق.

كيف ستتصرّف اللّحظة ؟ و كيف سيكون موقفك منها الآن، و هي مشغولة عنك بحديثها مع بعض الفتيات اللّواتي، و لا شكّ، يدرسن بنفس الجامعة ؟ هل ستعود أدراجك خائبا، جارّا أذيال الهزيمة و الخسران، هل ستقرّر العودة من حيث جئت !؟

و بطريقة تكاد تكون لا شعوريّة، لوّحت لها بيدك عساها تتلفّت نحوك، في إيماءة غير محسوبة العواقب، قد تأتي بالرّبح الوفير، و قد تأتي بنقيض ذلك كلّه، بالخسارة الفادحة المريعة، و عبثا ظللت تومئ إليها ملوّحا بيدك، على مبعدة من مجلسها، فقد ظلّت في شغل شاغل عنك.

و حتّى الآن لم تكن تدري، ما الذي دفع بك لتبرق إليها بتلك الإشارة بسذاجة صبيّ، على جهل مطبق بسوء عاقبة سلوكه ؟ و ما الذي جعلك تتصرّف ذلك التّصرّف الأرعن النّزق، فقد بدَا مِن السّذاجة و الحمق بمكان.

في النّهاية حمدت اللّه، على أنّها لم تلتفت إلى تلويحك، الذي تراءى في مثل تلويح يد غريق، يكاد اليمّ يبتلعه موجه الهادر المصطخب.

و عليه، و مادام الأمر كذلك، و طالما أنّك قد استدركته بداهة، قبل فوات الأوان، صمّمت أن لا تومئ إليها بعد الآن، و أن لا تدنو منها أبدا، و أبعد من ذلك أن لا تنتظرها هنا على قارعة الطّريق، لذا قرّرت عازما الذّهاب إلى المكتبة رأسا، في انتظار أن تلتحق بك.

و لكن.. ما الذي كان سيضمن لك أنّها ستلتحق بك فعلا !؟

ألا ترى، مثلا، كاحتمال وارد، و بخاصّة في مكان كهذا، مليء بكلّ أنواع الإغراءات و شتّى المزالق، أنّها قد تخلف وعدا كانت قد قطعته على نفسها !؟

من يدري !؟ هل أنت على يقين أنّها لن تخلفه ؟

لا تكن ساذجا غرّا، فقد يحدث ما لم يكن في الحسبان، لعلّها أكذوبة من أكاذيبها الكثيرات، ككذبة أفريل لا أصل لها و لا فصل، فليس بعيدا أنّها قد نصبت لك شركا، لتوقعك فيه فتكون واحدا من ضحاياها العديدين.

و وجدتك في حوار داخليّ، غير مباشر مع نفسك : «أهي من صنف الفتيات اللّواتي يقدّمن، أحيانا، وعودا لا يفيْن بها بتاتا، بل يجعلن من علقوا بقلوبهنّ، رهن وعود لن تتحقّق نهائيّا، يلذّ لهنّ، عقب ذلك، أن يرونهم يركضون خلفهنّ، كما تتصرّف أيّة فتاة لعوب عادة مع عشّاقها، ركض المغفّل الأبله وراء سراب خادع، يعتقد أنّه الحلم الورديّ الوحيد الأوحد على الأرض، الأكثر نقاء وصفاء وبهاء !؟»

لماذا تملأ رأسك بمثل هذه الهواجس، و لا شيء حتّى الآن، ممّا خمّنت قد تجسّد على أرض الواقع، و لكن معك بعض الحقّ، لك بعض العذر فالحذر واجب و ضروريّ، في مثل هذه المواقف، و أسوأ الاحتمالات ينبغي أن تكون واردة، تساؤلاتك أكثر من مشروعة، و لكن، بالمقابل، ثقتك فيها أقوى من أن يزحزحها مزحزح، و قد تجازى في مستهلّ الأيّام، و أنت على أصدق نواياك، أحسن الجزاء و أوفاه.

انضممت إلى الطّابور الحاشد بالطّلبة و الطّالبات، الذي ظلّ بعضهم في تواصل مسترسل مع اللّغط، و طيفها لم يفارقك لحظة واحدة، على أمل أن تلتحق بك قريبا، في أيّة لحظة.

كان الطّابور لطوله يمتدّ خارج أسوار المكتبة، تحت شمس تكاد تكون لافحة، ممّا يعني أنّ الزّحام حولها على أشدّه، و الإقبال عليها أكبر أثناء فترة الامتحانات.

وسط همهمة الحشد، كنت تتلفّت إلى الخلف، بين الفينة و الأخرى، ممنّيا النّفس بمجيئها، لعلّك تراها قادمة، و هي في كامل زينتها و بهائها، حتّى يطمئنّ لها قلبك، و لا تطوّح بك الوساوس بعيدا، غير أنّ شيئا من ذلك القبيل، لم يتحقّق حتّى الآن.

كنت في المؤخّرة تقريبا، التحق بعض الطّلبة، لينضمّوا إلى طابور، أحسست أنّه لا يتقدّم إلاّ في بطء السّلحفاة.

لم يكن يهمّك كثيرا أن يتقدّم أو يتقهقر، ما كان يشغلك فعلا هو أن تتقدّم هي باتّجاهك، و أن لا تغيّر بوصلتها نحو وجهة أخرى مغايرة، أن تبحر صوب مرفئك، لترسو عليه إلى حين.

لعلّها ما تزال مسمّرة القدمين هناك، حيث تركتها بمعيّة صديقاتها، و هنّ منهمكات في تجاذب أطراف حديث، لاح أنّه سيطول و لا يقصر، يبتسمن و يتضاحكن في جلبة ملفتة للنّظر.

غاظك أن تراها في كلّ تلك اللّياقة، منبسطة كلّ الانبساط، و الابتهاج لا يسع قلبها، و أنت هنا تحترق احتراقك البطيء، و تذوب مثل شمعة توهّج نورها، و تتلوّى صبابة بوهج الشّوق و الحنين إلى لقياها، و لكن.. إلى متى ستظلّ تحترق و تذوب ؟! إلى متى...؟!

ليست إلاّ البداية، الخطوة الأولى على درب، مشواره سيكون أشقّ و أشدّ عسرا، ربّما، و قد يكون على النّقيض من ذلك كلّه، الزّمن وحده كفيل بكشف المستور، بوضع النّقاط على الحروف.

و في غمرة شرودك، يتناهى إليك صوتها فجأة، على عهده بالرّقّة و النّعومة :

« أهلا جمال ! »

و حالَما التقت عيناك بعينيها الجذّابتين، أحسست بقلبك ينتفض، مثل عصفور عبثا يبحث له عن منفذ للهروب، في دقّات مضطردة، متعاقبة، متسارعة الإيقاع، موقِّعة معزوفة الخجل و التّردّد، حاصرتك بفيض من روحها الحالمة، المرحة و طوّقتك بجمالها الآسر كالمعتاد.

تتفاجأ بإطلالتها، تأخذك الدّهشة على جناح المسرّة بعيدا، ثمّ تردّ عليها متلعثما بعض الشّيء :

« حـ.. حياة ! »

تستدرك بثقة كانت تعوزك، بعد هنيهة، متأخّرا تأخّرا نسبيّا، تحت وقع الإنبهار :

« أهلا و سهلا.. ! »

تنسحب السّحابات الدّكناء التي كانت قد علت صفحة وجهك، يشرق ثغرك بابتسامة ضيّقة، سرعان ما راحت تتّسع بالتّدريج، لتنتهي بابتسامة عريضة، حييّة، دافئة أخفت كلّ تلك الجهامة التي كانت تغطّي عليه.

تمدّ لك يدا، تطلب إذنا بمصافحتك.

تتلاقى يدكما بحرارة، في مصافحة أذابت كلّ جليد أشواقك.

« أرجو أن لا أكون قد تأخّرت عليك كثيرا. »

و في لهجة من يبدي تسامحه قلت :

« لا عليكِ، دعي هذا الأمر جانبا الآن. »

« متى و أنت هنا ؟ »

« منذ حوالي ربع السّاعة ! »

« الاكتظاظ على المكتبة على أشدّه ! »

« أجل، هذا واضح ! »

« الطّابور طويل ! »

« لا يتقدّم إلاّ ببطء. »

« هي هكذا دوما في فترة الامتحانات. »

« ماذا سنفعل !؟ »

« ننتظر طبعا ! »

و في توسّل من يستأذن الانصراف فورا قلت :

« أخشى أن يطول بنا الانتظار، دون أن نظفر بمبتغانا.. »

ران الصّمت لحظة قصيرة، و في ما كانت تهمّ بتسلّم نسخة عن القصيدة المنشورة التي أخرجتها من محفظتك الجلديّة السّوداء، و قدّمتها لها عن طيب خاطر، بادرتك إلى القول :

« كنت أظنّ أنّك ستنسى الأمر.. »

« أبدا، لا يمكن ذلك.. »

« شكرا على الاهتمام، هذا لطف منك ! »

« أنتِ دعوت و أنا استجبت، و دعوة الكريم لا تُردّ. »

مرّرت يدها في شعرها الفاحم النّاعم، أزاحت خصلات مالت على وجهها، ثمّ رفعت عينيها إلى وجهك :

« تصوّر ! لا أبالغ إن بحت لكَ الآن بسّر.. »

« أيّ سرّ تعنين !؟ »

« سرّ إعجابي بقصيدتك، لقد انشغلت، طيلة الصّبيحة هذه، بطيف صورها و إيقاعاتها و ألوانها و ظلالها، كنت أحلم بها و أنا على موعد معها، كما ترى الآن.. »

علّقت على قولها هذا مازحا، و أنت تقدّم لها ما سبق و أن وعدتها به :

« يبدو أنّ ذاكرتك ضعيفة، ما تريْنه حتّى الآن سرّا، لم يعد سرّا بالتّأكيد، لقد سبق لك و أن بحت به، كلّ هذا وقع صباح اليوم فقط.. ! »

تضاحكت و هي تتسلّم النّسخة بفرحة عارمة، ثمّ.. و هي تفضي إليك بمزيد من الإعجاب بشعرك و الثّناء على موهبتك :

« سأعيد قراءتها مرارا و تكرارا، دون أن يدركني منها ملل أو كلل، سأمضي معها بقيّة ليلي، على سرير النّوم، اللّيلة لن يحلو لي الكرى إلاّ إذا أغمضت عيني على طيفها.. »

أحسست بسخونة في جسمك، و بوجهك بدأ يتفصّد عرقا، و بالانفعال قد شرع يدبّ في مفاصلك، لم تجد من الكلمات ما تجابه به كلّ هذا السّيل من الإطراء و الثّناء، و كلّ هذا الفيض من الشّغف و الولع، و لكنّك استدركت الأمر في اللّحظات الأخيرة :

« أشكرك على بالغ اهتمامك هذا.. »

هزّت رأسها ببطء و هي تبتسم قائلة :
«بل أنا التي أشكرك جزيل الشّكر..»

9

الطّابور لا يتقدّم تقريبا، كأنّما حركته قد شُلَّت، و الشّمس تلقي بشواظها الحارق نسبيّا.

أحسست أنّها بدأت تتأفّف من كلّ هذا الانتظار الذي طال، و في غضون ذلك عنّ لك أن تستغلّ فرصة تذمّرها، في محاولة لتغيير الوجهة تماما، فكان أن اقترحت عليها فكرة الذّهاب إلى المكتبة الوطنيّة، فهي أكثر رحابة و سعة، و وفرة أيضا في ما توفّره للطّلاب من مراجع قيّمة.

توقّفت لحظة كأنّها مهلة تفكير لشخص يُمتحَن، ثمّ خطر لها أنّ الفكرة التي أبرقت بها إليها منذ حين، مقبولة و يمكن استحسانها جدّا، و في الحين قدّمت لك موافقتها على السّاخن، دون كثير تردّد.

انصرفتما على عجل، و أنتما تبتعدان عن حرم الجامعة رويدا رويدا، و اجهكما الشّارع المزدحم دوما، الضّوضاء تتناهى من هنا و هناك.

سرتما جنبا لجنب لأوّل مرّة، تهيّبت الأمر نوعا ما، فقد سبقك بعض الخجل إلى الطّريق، و ها هو ذا يخيّل إليك أنّه حاجز،

يمنعك من التّقدّم في تحدّ سافر، أمّا هي فلم تلاحظ عليها إلاّ الانشراح و الانطلاق و الابتهاج و الحيويّة، ترتسم آياتها جميعا على محيّاها، و تبدو على حركاتها جليّة.

ولعلّها أحسّت بما أنت فيه من حرج نسبيّ، فأرادت بطريقتها الدّبلوماسيّة، أن تخرجك من طوق، لم يحاذِ اللّعنة، لحسن حظّك و إلاّ كان يومك هذا أسود، خرابا على رأسك، و تفكّ عنك حصارا غير معلن، فقد كانت تتحدّث إليك أكثر ممّا كنت تتحدّث إليها، وكنت تستمع إليها أكثر ممّا كانت تستمع إليك، في حين كان من المفروض أن يقع العكس.

يا للمفارقة !

منذ حين فقط، كان قد عنّ لك أن تطلب منها في ترجٍّ، الإذن بالموافقة للخروج معك، غير أنّك عدلت عن الفكرة أصلا، و أرجأت ذلك إلى وقت لاحق، بعد أن رأيت أنّ أمرا كهذا، لم يحن بعد أوانه، فمن الأنسب و الأفيد أن تدعه لمستقبل الأيّام، تنضجه على نار هادئة، فليس هناك أسوأ من التّسرّع، ثمّ إنّ تعارفكما لم يمرّ عن مولده يوم واحد، فقد رأى النّور صباح ذلك اليوم فقط، و ها هي ذي ذات الفكرة، تأخذ طريقها نحو التّجسيد، بغير مشيئتك و لكنّها بمشيئة الأقدار.

أو ليست الأقدار هي من يقرّر في النّهاية، قد نفكّر في الأمر، نأخذ فيه و نردّ، نقبل بهذا و نرفض ذاك، نقوم بتقديم هذا و تأخير ذاك، نحوّر و نعدّل ما يلزم، و لكنّ القرار الأخير، في أحايين كثيرة ليس بأيدينا، عندها لا نملك إلاّ الإذعان

لمشيئة، لم نكن طرفا رئيسيّا في صياغتها، و لا حتّى طرفا مساعدا على قولبتها.

فجأة ترفع يدك في الهواء، في محاولة لإيقاف إحدى سيّارات الأجرة.

«طاكسي ! طاكسي!»

دهشت حينما رأت تلويحك هذا، تفاجأت بحيث أصابها ما يشبه الذّهول، غير أنّك تماديت غير مبالٍ بموقفها، لم تَعِرْ لانفعالها كبير اهتمام، ذاك الذي التمعت له عيناها.

مضت العربة ولم تتوقّف، و انتظرت بصبر قدوم أخرى، لتعاود تلويحك كرّة أخرى.

حاولت أن تمانع و لكنّك استطعت، في النّهاية، أن تقنعها بسلامة الفكرة التي خطرت في ذهنك كالبرق، بعد مدّ و جزر، و أخذ و ردّ طبعا.

أفهمتها أنّ أقلّ الواجب أن تقلاّ سيّارة الأجرة، و أنّ معزّتها عندك لا تساوي، في هذه الحال، إلاّ ركوبا في عربة مريحة.

شكرتك على هذه الالتفاتة الطّيّبة، و سرّت لها بابتسامة مشرقة، كشفت عن صفّ أسنان في نصاعة الثّلج، زاده رونقا تناسق أجزائه.

في هذه الأثناء كانت هناك سيّارة الأجرة قادمة، سارعت إلى التّلويح لها بإشارة من يدك، كما جرت العادة بذلك.

«طاكسي ! طاكسي ! طاكـ....»

بعد قليل يتوقّف الطّاكسي، محاذيا جانبا من الرّصيف الذي ظللتما وقوفا عنده.

عربة فخمة من نوع (بيجو 406)، آخر طراز، بلون بنفسجيّ فاتح، أطلّ السّائق برأسه، في العقد الخامس من عمره، بعدما انحنيت إليه متسائلا :

«عمّو ! توصّلنا للمكتبة الوطنيّة ؟»

وفي لمح البرق، أومأ إليك إيجابا، بإشارة من رأسه خفيضة.

فتحت لها الباب الخلفيّ، وانشغلت بمساعدتها على الصّعود.

فكّرت و أنت تهمّ بالرّكوب : «تلك منّة قد أُحسد عليها، ما كنت أخشاه لم يقع، إذ لم يطل بي الانتظار كثيرا، فنادرا ما يتمكّن المرء من إيقاف طاكسي، و يُلبّى طلبه على الفور..»

عاود السّائق انطلاقه، مضت بكما العربة، وكأنّكما في موكب زفاف على انفراد.

لست تدري كيف انتابك، فجأة، هذا الشّعور الغريب، الحلو المذاق، اللّذيذ الطّعم، الآتي من أقصى الأقاصي، هل هي أمنيّة مخبّأة في اللاّشعور، مطمورة مثل لؤلؤة في القاع العائم، فما عليك إلاّ السّعي حثيثا لإخراجها إلى دنيا الأحياء و الأشياء.

ربّما كان حلما أن تهبك الصّدفة، سيارة فاخرة كهذه، تستمتع بركوبها و لو إلى حين.

ابتسمت لها فردّت عليك بأكثر من ابتسامة حلوة، شهيّة، باهرة النّور، دافئة الإشراق، آسرة الجمال.

«بما تشعرين !؟»

«و كأنّني أحلّق عاليا، عاليا، و أطير بعيدا، بعيدا، أجل ! هذا هو انطباعي أوّلاً و أخيرًا..!»

«هذا وصف لا ينسج على منواله، إلاّ خيال جانح، رَاءٍ، منشئ و خلاّق، نافذ الرّؤى، عميق الأفكار و بعيد الأقاصي»

«أشعر بمتعة لا نظير لها.. صدّقني !»

«أفضل بكثير من زحمة الحافلة و زعيقها..؟!»

«أنت محقّ.. تماما !»

«لم أكن أشأ أن تكون أولى خرجاتي معك، بطريقة بخسة و هجينة، أردتها إمتاعا و مؤانسة، مفاجأة سارّة أقدّمها لكِ على طبق ملكيّ، تنقش في الذّاكرة نقشا لا يمّحي، و ترتسم عليها ذكرى عطرة نضرة لا يطالها النّسيان، تقاوم الزّمن مغالبة، في روعة و أبّهة، و عناد و تحدٍّ أيضا، و ها هو ذا الحظّ يحالفني في ذلك.»

«و أنا بدوري لم أكن أرغب، صدّقني، في أن تكلّف نفسك ما لا طاقة لك به.»

أدرت وجهك إليها، و أنت تمدّ ساقيك إلى أمام، كأيّ سيّد كبير محترم، تنظر إليها بشغف قائلا :

«اطمئنّي من هذا الجانب، لديّ شيء من تحويشة العمر، حمدا للّه أنّني ادّخرت ما جمعته من مال، القرش الأبيض لليوم الأسود، كما يقول أشقّاؤنا في مصر»

و بما يشبه الذّهول ردّت متسائلة :

«كيف و أنت لا تزال طالبا، لمْ... ؟!»

قاطعتها للتّوّ متضاحكا :

« على وشك التّخرّج... »

لم تقل شيئا هذه المرّة، بل واصلت الاستماع إليك، و أنت تقول مجليا ما غمض عنها :

« هذه سنتي الأخيرة، وسأنال شهادة اللّيسانس الصّائفة هذه.. »

عادت تقول متسائلة في ما يشبه الاستفهام الاستنكاري :

« لم تنلها بعد، هذا يعني أنّك بدون عمل.. ؟! »

« أبدا ! لقد استطعت أن أعثر لي على وظيفة، لطالما سعيت مكابدا للحصول عليها... تلك حكاية أخرى، ليس هذا مجال سردها الآن.. »

ثمّ مستدركا بعد هنيهة :

« آمُل، فقط، أن أثبّت في منصبي بعد نيلي الدّيبلوم، هذا كلّ رجائي في النّهاية. »

« أتمنّى لك ذلك من كلّ قلبي »

ثمّ بعد برهة من الزّمن استطردت متسائلة، لمزيد من التّوضيح :

« ماذا تشتغل ؟ »

« صحفيّ.. »

« بيوميّة وطنيّة.. »

« طبعا، استطعت أن أفتك منها عقدا، لمدّة سنة قابلة للتّجديد.. »

« آ.. هذا جميل ! رائع.. ! »

بعد لحظة صمت تستدرك قائلة :

«الصّحافة مهنة جيّدة و لكنّها جدّ متعبة.»

«ليس هناك خيار، عندما يشحّ العرض في سوق الشّغل، و يكثر الطّلب على التّوظيف، إقتصاد السّوق هذه هي قاعدته الذّهبيّة، و على الجميع الرّضوخ لها.»

و كمن يريد أن يغيّر مجرى الحوار تماما، ليأخذ له منعرجا آخر، وبنيّة مسبقة التفتّ إليها، تدسّ ذراعك فوق المقعد خلفها، وأنت تفضي إليها بصوت حالم :

«أتدرين ماذا أتخيّل الآن !؟»

ملأها الفضول فاستسلمت لاستفهام ملحّ أكيد :

«خير إن شاء اللّه !؟»

«يخيّل إليّ كما لو أنّنا في رحلة ممتعة، موعودة بشتّى المسرّات والمباهج، وسط حقول ممتدّة الخضرة، تتوالى مشاهدها السّارّة و لا تكاد تنقطع عن العين إلاّ عودا على بدء، بهيجة المناظر تتخلّلها بعض الألوان الأخرى الفاتحة الزّاهية، بين أخضر و أبيض و أحمر، تحت ضياء الأصيل..»

«يا لخيالك العجيب !»

«الخيال لا تخوم ينتهي عنده، هو و المطلق سواء تقريبا، ليس بينهما إلاّ حدّ رقيق فاصل.»

«الأمر معقول كونك شاعر.»

«أتدرين.. أنّ كثيرا من الواقع كان في الأصل خيالا عند البدء، فما أكثر ما تحوّل الخيال إلى حقيقة مرئيّة مرأى العين، ملموسة لمس اليد، فهذا «عبّاس بن فرناس» لم يجد بدّا من أن يتخيّل نفسه طائرا فصنع له جناحين، ثمّ طار محلّقا من

على هضبة ولكنّه سرعان ما هوى أرضا ليلقى حتفه، رحل إلى العالم الآخر بتلك الطّريقة الاستعراضيّة المذهلة المفجعة، حبّا في تحقيق أمنيّة بعيدة المنال، بيد أنّ فكرة الطّيران التي قام عليها خياله، التّائق إلى معانقة الغد الطّالع من مغاور المجهول، تحقّقت فيما بعد بقرون، إنّه سعي الإنسان في سبيل نشدان التّفوّق وتذليل الصّعاب وتحقيق الرّفاهيّة، و تلك هي ضريبة التّمدّن و التّحضّر، التي نتقاعس الآن نحن الأحفاد عن دفع ما علينا من مستحقّاتها الجمّة الجليلة. »

مع مرور الوقت نسيت حرجك، أو بالأحرى تناسيته، فمن غير الطّبيعي أن نشطب على الانفعال نهائيّا، هكذا بجرّة قلم، و من غير المعقول أيضا، أن ندعه يتعاظم متكالبا، إلى حدّ يشلّ فيه القدرة على الحركة، و يثبّط العزيمة و يربك الانطلاق، كان لابدّ من التّصالح بينهما، من عقد وفاق يفضي إلى حالة توازن مستديمة، يمنع تأرجح إحدى الكفّتين على الأخرى فيكون الصّدام هو المآل الأخير.

و فجأة تُفاجآن بتثاقل حركة المرور، سيل من العربات عارم، يتدفّق في الشّارع المكتظّ عن آخره، تتمهّل السّيارة كغيرها، وأخيرا تتعطّل حركة المرور إلى حين عودتها إلى مجراها الطّبيعيّ.

تنطلق منبّهات الأبواق، في أصوات نشاز اختلط بعضها ببعض في قسوة و عنف، بدأت خافتة ثمّ سرعان ما راحت تعلو و تجلو، تكتظّ و تتكاثف، التّوتّر بدأ مفعوله يدبّ في رؤوس السّوّاق، من نوافذ العربات الأماميّة، أطلّ أكثر من رأس يقذف

باحتجاجه الصّارخ غير مبالٍ، وتناهى إلى الأسماع أكثر من صوت، مبديا تذمّره وتبرّمه المحتدّيْن.

هذا الجوّ المباغت الخانق، أعاد ابتهاجكما إلى خانة الانطلاق، و أنزله إلى درجة الصّفر، و زاد من ثقل الجوّ الذي اعتكر بغتة، الصّمت المطبق الذي ران داخل العربة، و لم يمنع كلّ ذلك من أن تنشغل بها، و لعلّها فرصة مواتية لذلك.

فكّرت متأخّرا بشأنها : «و لكن كيف اطمأنّت لي كلّ هذا الاطمئنان !؟ كيف و ضعت ثقتها فِيْ، بهذه الطّريقة العمياء !؟ أو لم تخشَ على نفسها منّي ؟! تُرى هلِ ائتمنتني على وديعتها، و هي متأكّدة من أنّني سأكون خير صائن لها !؟»

وفي غضون تفكيرك هذا، حركة المرور تشهد انفراجا اللّحظة، تتقدّم المركبات من كلّ الأشكال و الألوان و الأحجام رويدا رويدا، ثمّ تعود الحركة إلى أوّل عهدها، أخيرا يتنفّس السّوّاق الصّعداء، و كم كان انبساطهم عارما !

10

أخيرا تتوقّف المركبة الفاخرة، في الجهة المقابلة للمكتبة الوطنيّة، غير بعيد عن موقف الحافلات، المنتصب في شارع «فرانس فانون»، على غير مبعدة من «فندق الأوراسيّ» الرّائع.

تنزلان على مهل، تقرض السّائق الثّمن المطلوب، المسجّل على العدّاد، ثمّ تجدان زرقة البحر في مواجهتكما.

جاءتك فكرة الوقوف قبالة البحر بتلقائيّة، وعن طواعية أيضا لمعت في ذهنك مثل شرارة كهربائيّة خاطفة.

هي الأخرى أخذتها زرقة البحر، لم تشعر إلاّ و هي ترنو إلى المدى الأزرق البعيد، في انتشاء وتشهّ وحبور و اغتباط.

دنوتما من الحاجز الإسمنتيّ الواطئ، المطلّ على البحر الذي كان يتباهى بزرقته الرّاقدة، الحالمة، مستندين إلى حافّته في حبور، تاركة هي لنسائم البحر المنعشة، حرّيّة العبث بشعرها.

أدهشتك هذه المداعبة المغرية، أيقظت فيك رغبة ما، كانت قد استسلمت للسّبات، تمنّيت اللّحظة لو حللت محلّ البحر، لتفعل

نفس الفعل، بل و أكثر من مجرّد تلك الملامسات الدّافئة، لو أنّك كنت مقامه بحقّ و حقيقيّ، لجذبتها بذراعيك ثمّ لضممتها، بعد ذلك إلى صدرك، و لهممت بتقبيلها بكلّ حرارة الشّوق و عنفوان الرّغبة، لاقتربت منها حدّ الالتصاق، و لداعبتها أنت بلمساتك الحانية، بل لأحسّت بك تميل بغية معانقتها.

خطر كلّ ذلك في ذهنك، ولكنّك لم تفعل، لم تجرؤ على ذلك، الخجل كان يسبقك دائما، والتّردّد يمنعك من التّقدّم، صرفت النّظر عن أمنيّة حارّة، جميلة كهذه، لا تريد، ربّما، أن تستعجل قدومها على هذا النّحو المسفّ الكريه، فلكلّ شيء ميعاده و ميقاته، لأنّك موقِن من أنّها ستأتي من تلقاء نفسها، ذات يوم في القريب العاجل، بلا تصنّع أو إكراه أو أيّ شيء آخر من هذا القبيل، حين تزفّ لك يوما من الأيّام، حتّى و إن لاح لك ذلك اليوم حلما قصيّا كالأفق الذي لا يدرك حتّى الآن.

قالتْ برضًى هادئ حلو :

«منظر جميل و أفق رائع !»

لبثتَ بضع ثوانٍ تحاول لملمة شتات أفكارك، قبيل أن تفضي إلى القول معزّزا فكرتها و مؤكّدا على صحّة انطباعها :

«هذا مؤكّد !»

بادرتْ إلى القول مرّة أخرى، و قد ارتسمت على شفتيها ابتسامة نضرة، حييّة :

«إنّي لسعيدة جدّا لمرآك !»

«و أنا بدوري أسعد ما أكون بوجودك معي، بل إنّي لأتشرّف دوما بمقابلتك»

«صدّقني، الحديث لا يحلو إلاّ معك، و الأيّام لا تلذّ لي إلاّ و أنا بالقرب منك، و كأنّ تعارفنا مضى عليه زمن طويل، أو أنّه حدث منذ عهد بعيد، أليس في هذا ما يثير الدّهشة و يدعو إلى العجب.. !؟»

اشتدّت حيويّتك وكأنّك ولدت من جديد، تُبعث من رماد النّار المنطفئة جذوتها مجدّدا، إذ لم تعد ذلك المتهيّب من أدنى الكلمات و الحركات الذي كنت تحسب لها ألف حساب و حساب، و أنت تفضي إليها بما في نجواك بكلّ حرارة الشّوق المخبوء في حناياك.

«حياة أنا سعيد جدّا برؤيتك، و وجودك معي يسعدني كثيرا !»

ردّت بحرارة مضاعفة :

«و أنا أسعد !»

ثمّ بعد برهة من الزّمن تضيف كمن يستدرك شيئا ما لا يقدّر بثمن :

«يتجدّد اللّقاء فتتجدّد معه نسائم صداقتنا الغضّة، اليافعة، الفتيّة، و ينتعش هواء خميلتها و يصفو جوّها أكثر فأكثر...»

تأسرك نبرات هوائها الرّقيق، المشبع بالنّعومة، المتقطّر حلاوة، فقد هام به قلبك كلّ الهيام لا بعضه، يتسلّل إلى أعمق الأعماق، يغوص في مناحي الذّات جائلا صائلا، يتوغّل في أطراف الدّاخل إلى أقصى زاوية فيه، ينفذ حتّى حشاشة الرّوح، يستوطن أقاصيها غائرا، منسابا في وداعة البحر

و بهائه الأخّاذ، حين تأخذه الإغفاءة، ساكنا سكون ليل مقمر، حالِما حلم عاشق موعود باللّقيا، وديعا وداعة خروف يقضم العشب النّديّ في هناءة، و هو مطمئنّ إلى مرعاه الخصب، غير حذر و لا وجل.

قلت في قرارة نفسك بابتهاج لا تخطئه عين : «اليوم يوم التّجوال، سيكون للتّنزّه و التّسلّية و التّرفيه و فقط، للبوح أيضا و نسج الخيالات المخمليّة الجميلة الرّؤى بمغزليْ الشّوق و الرّغبة، و الاستحمام في بحيرة الأحلام الرّائعة الأبّهة !»

ثمّ بعد هنيهة استدركت الموقف مبديا بعض التّأسّف : «... لو كان لي دخل جيّد لاصطحبتها إلى مطعم راقٍ، أنيقٍ من خمسة نجوم في «سان جورج» أو في «الأوراسي»، لتتناول معي هناك ألذّ الأطباق و أشهاها، يتخلّل جلستنا حديث آخر خارج عن العادة، لن يكون مبناه و لا معناه سوى القلب، نكون نحن الاثنين نصّا خارج النّصّ، بعيدا عن قاعة التّحرير، و توجيهات رئيس التّحرير و إملاءاته و لاءاته، سنصوغ حروفنا من نور و نار ثمّ ندبّج ما يحلو لنا و يلذّ، و سيكون الحبر بلون دمنا كما نهواه، و ستنتهي كلماتنا على نحو ما نشتهيه، و نرغب فيه معًا دون سوانا...»

كان ارتجاف شفتيها المغري، يثير فيك كوامن الرّغبة، في أن تنيم حلمك الوليد فوق وسادة شفتيها، في أن تلثم شذى رحيقهما و تلعقه و تمتصّه، في أن تمرّغ شفتيك على مرابع وجهها الغنّاء بكلّ الاشتياق و الولع...

و لكنّك، و لسبب ما، كنت تتماسك في اللّحظة الحاسمة، كلّما هممت بتقبيلها، حتّى و إن دعتك هي، أو أذنت لك

ضمنيّا، فلن تخوّل لنفسك ذلك، ولن تسمح لها بذلك هي الأخرى، دون أن تكسف خاطرها.

فهذا أوّل الغيث و البقيّة ستأتي، ممّا لا ريب في ذلك، فلا داعي لأن تستعجل جني قطوف غير ناضجة و لا دانية، لـمّا يحنْ موسم قطافها.

كنت تشعر و كأنّك في حلم مشرّع على المطلق، مفتوح على الأبديّة، مسافرا أبدا سفرا يتخطّى الزّمان و يتجاوز المكان، و إذا بالمسافات قد اختزلت و بالحدود قد ألغيت و بالحواجز قد رفعت و بالأزمنة قد اختصرت، و شوق الإبحار بعيدا بعيدا يعانقك معانقة مخمليّة، سرمديّة.

و أنت بين أحضانها الفيحاء الغنّاء، أحسست و كأنّك خارج الزّمن، وجها لوجه مع عالم بلا حدود، ووجود غير محدود، فلا سدود و لا قيود، قبالة آفاق رحبة، في سعة المدى، لا ينتهي إلاّ على بدء، عصفورا كنت تشدو أبهى تغاريدك خارج السّرب، تصدح بمعزوفتك الطّروب، مزهوّا بتميّزك و فرادتك، صانعا للاختلاف فرجة على غير ما جرى به المألوف.

تبخّر العالم الواقعيّ صاغرا، و تراجع المحدود مدحورا إزاء الانفتاح و السّعة و المدى، مغلوبا على أمره و هو يولّي الأدبار، قبالة كلّ هذا البهاء الخلاّب، فاسحا المجال لعالم آخر متناسق الأجزاء، منسجم الألوان، متناغم الإيقاع، حلّ محلّه عالم من سحر و حلم و خرافة، الوجد فيه ظلّ سيّد الأسياد بلا منازع ولا مزاحم، فلا ندّيّة و لا خصيم و لا قرين.

تخيّلتك بلبلا يحلّق في علياء السّماء، ينجذب إلى المطلق لا غير، يرنو بشدوه و يضجّ به طربا حتّى لكأنّ كلّ شيء يميل و يتمايل رقصًا و تراقصًا، في رشاقة راقصي رقصات الباليه، و كأنّه أفعم الدّنيا بحنجرته ابتهاجا و حبورا و غبطة و سرورا.

توقّدت فيك لواعج العشق، أحسست بكلّ ما فيك يحترق في معبد هواها، الذي تيّمت به هذا النّابض الولهان.

تراءت لك في مخيّلتك كما لو أنّها بين ذراعيك، تحيطان بها، تضمّها إليك ضمّة وددت لو تدخلها صدرك، بل و تطبق عليها حتّى تتلاشى و تحلّ فيك، مستكينة لك في وداعة حمْل يقضم عشبه الأخضر الطّريّ، و هو بعد مطمئنّا إلى مرعاه، و في رقّة قطّة لا تروم غير مزيد من الدّفء تصيبه، تحتضنها في ولع و وله عارمين، كأنّك تضمّ أطراف العالم من أقصاه إلى أقصاه.

كنت تتعمّد إطالة الرّنوّ إلى وجهها الرّيّان، قصد إثارتها ربّما، و لكنّك، بغضّ النّظر عن ذلك، و بالمقابل، وجدت في ذلك لذّة و متعة لا عوض لهما و لا بديل عنهما، و كلّما أطلت التّحديق إلى محيّاها الصّبوح السّمح، أحسست بنبضات قلبك تزداد دقّا، و بصدرك يعلو و يرتفع، و بأنفاسك تثقل لاهثة، كما لو أنّك كنت تركض لمسافة قصيّة، هي مسافتها في بدئها و منتهاها، و بدمك كأنّه مرجل يغلي على نار لاهبة فيفور فورانا، هو دمها الذي يضخّه لك هواها أوّلا و أخيرا.

لم تكن تبتسم لها كثيرا، بل هي من كانت تفعل ذلك، و إن قُدِّر لك أن تبرق إليها بابتسامة فعلى ضنّ و شحّ وتقتير ومنّة،

غير أنّك هذه المرّة أغدقت عليها عطاءً مجزيا، فقد منحتها ابتسامة نادرا ما تجود بها، و قلّما يشعّ بها ثغرك على ذلك النّحو المثير الأخّاذ، و بالمقابل، لم تكن هي لتتأخّر لحظة واحدة عن الاستجابة لها، شاكرة لكَ جميلك و ممتنّة لصنيعك معها.

هزّت رأسها هزّة خفيضة، فتهاوى شعرها الحريريّ، الغزير، الكثيف، النّاعم الملمس حول وجهها الباشّ، قبل أن تقول في رقّة و نعومة كالمعتاد، أيقضتا فيك رغبة محمومة، ضاجّة في جذبها بذراعيك بغية ضمّها إلى صدرك.

« أحبّ زرقة البحر »

و كمَن يهمّ بتقبيل حبيبة له قلت :

« و أنا أغار عليكِ منها يا عزيزتي »

رفعت رأسها نحوك مبتسمة لكَ بطريقة ذكيّة سخيّة، و كنت أثناءها تتذاوب كلّما لامسك إشراق عينيها الدّافئ الذي سرَى مفعول أشعّته العجيبة في حنايا مهجتك.

« رائع ! هذه ومضة لا يأتي بها سوى خيال جامح، منطلق، راءٍ، منشئٍ و خلاّق.. »

« كعادة الشّعراء طبعا »

« الشّعراء الذين يتبعهم الغاوون.. »

علّقت مازحة و هي تطلق ضحكة خافتة مغرية، زرعت في نفسك الجرأة على الالتصاق بها أكثر، و حفّزتك على أن تمدّ يدك نحو وجهها المليح الفتّان، ممنّيا نفسك بقبلة عسليّة يانعة تقتطفها من خدّها المورّد الغضّ، كان سيسرّك لو ظفرت

بها ، و لكنّك أخفقت في مسعاك حين تنحّت عنك بغتة، مائلة عنك قليلا، حيث كانت ردّة فعلها أسرع من حركتك تلك.

عاودت المحاولة كرّة أخرى، التصقت بها أكثر ممّا سبق، واضعا كفّك على ظهر يدها ، فلم تبدِ اعتراضا على ذلك أوّل الأمر، إلاّ أنّ جسدها ، حين أحسّت بك تميل لمعانقتها ، تشنّج كلّه فانكمش و انكفأ ، بعدها ران الصّمت عليكما و ساد راميا بكلّ ثقله، غير المعهود اللّحظة.

غشيك الخجل نتيجة تصرّفك هذا ، و اعتراك ضرب من النّدم خفيّ، استطاع أن يحدِث بداخلك ارتجاجات مربكة، و في الحين قلت في نفسك مواسيا : «لا مجال للتّسرّع، فليس هناك أسوأ من التّسرّع، هذا حلالي منذ اللّحظة، و لن أفسده بنزوة عابرة، قد أندم عليها لاحقا طوال عمري، سأترك الثّمرة المزمع جنيها لحرارة الشّوق ينضجها على مهل، و حين أطمئنّ إلى أنّها قد صارت في تمام طزاجتها ، هنا فقط يمكنني جنيها غير حذر و لا متردّد ، حينها ، ستكون حلاوتها أشدّ.

11

بعد ذلك تكرّرت لقاءاتكما، بحيث أضحت يوميّا، و صار في حكم المعتاد أنّك كلّما التقيتها، تحسّ بالابتسامة ترتفع إلى تغرك.

ترنو إليها مبهورا بكلّ ما فيها، تتملاّها مسحورا بدفء نظراتها، منجذبا لحسن حديثها، مأخوذا بطلاقة لسانها، و حيويّتها، و مرحها، و اندفاعها جميعا.

و يوما بعد يوم، و لقاء تلوَ الآخر، صرت تحرص على أن تتقصّد في مغازلتها، ذلك أنّك و ببساطة، اعتبرتها منذ أولى خطواتك معها، زوجة المستقبل و رفيقة العمر، و لذا عقدت العزم، قدر المستطاع أن تتفادى كلّ ما يمكن أن ينمّ عن مبالغة مخلّة بقدسيّة هذا المرمى الأنقى، الأرقى، و الأبقى، فعلا أو نطقا كان أو إشارة.

كنت ترى أنّ كليكما يناسب الآخر، ينسجم معه و يتناغم، موافقا إيّاه في كثير من الأمور، هناك إذن قواسم مشتركة بينكما، و بالقدر الكافي الذي بوسعه أن يعزّز آصرتكما أكثر، كما كنت تزعم أنّها لك، في ما يشبه الإعتقاد الرّاسخ رسوخ الرّواسي.

أحسست أنّها لك، هي دون سواها من الفتيات، من علِق بها القلب، و تيّمه هواها الغلاّب، فقد كانت في نظرك أكثر من مجرّد صديقة، و كذلك كنت معها ، أكثر من مجرّد ولهان، يجمعكما العشق إلى حين، ثمّ يجمعكما الحبّ في النّهاية، و كأنّكما خلقتما لبعضكما البعض.

كنت مقتنعا أنّك ستجد السّعادة منها ، لقد كانت المرأة الحلم، لطالما ظلّ طيفها قابعا في ذاكرتك، معشّشا في خيالك.

تهت بعض الوقت في السّراديب و الدّهاليز و الأقبية المختنقة الأجواء، و لكنّك في النّهاية أبصرت طريقك إليها ، بعدما ضللته ردحا من الزّمن، و بهذا الاعتبار فقد كانت هديّة من السّماء حقّا ، على نحو من الأنحاء.

اطمأننت أنّها لك، و لن يفوز بقلبها غيرك، كنت في ثقة عمياء من ذلك، و لكن.. ذات يوم، وقع ما لم يكن في الحسبان، فقد أدهشك أن تنتهيَ ثقتك المطلقة فيها على ذلك النّحو المفجع، أن تؤول إلى مآل مخز، انطبق كلّ ذلك بما بالغت في تصوّره مبالغة مفرطة.

هالك ما رأيت، صعقك المشهد المريب، لم تتمالك نفسك فرميتها بكلّ ناقصة ساقطة، دون أن تتأنّى و تتريّث، احتكمت إلى القلب و لم يكن دليلك الصّادق الصّدوق هذه المرّة، و تغاضيت، تحت وقع المفاجأة التي بدت في الظّاهر غير سارّة، عن الاحتكام إلى رجاحة العقل حتّى غشي نفسَك العمى، قبل أن تصدر حكمك بشأنها أوّلا ، ثمّ حتّى قبل أن تتحقّق بنفسك من حقيقة الفاعل و المفعول، بل و تتأكّد

بنفسك إن كانت هي بلحمها و شحمها أم لا ثانيا، و جانبت الاهتداء بنور البصيرة، فأخذك الضّلال في تيه بعيد.

شرعت تدنو مدقّقا النظر أكثر، و كأنّ الرّؤية تضبّبت و كأنّ البصر غشيته عتمة تكاد لا تنجلي.

شرعت أعماقك تصيح في ذعر لا يتناهى إلاّ إلى سمعك أنتَ :

«لا !»

«مستحيل !»

«غير معقول !»

«لا يمكن أن تكون هي، مَن يقف تلك الوقفة المريبة المشبوهة، مع ذلك الشّاب الجامعيّ، في محادثة على انفراد، لا يمكن.. لا يمكن، أأصدّق عيني أم حدسي الذي يقول نقيض ما أرى مرأى العين !؟»

تتنهّد، تتأوّه، ثمّ تجدّد الوصل مع البوح عن وجع ألمّ بك منذ حين فقط على حين غرّة : «يا إلهي ! لا أكاد أصدّق، بل لا أريد أن أصدّق !»

و دون أن تصدّق حتّى الآن، تفاديا للتّسرّع في استصدار حكم بشأنها، قد يكون جائرا في حقّها، ربّما، ستندم عليه لاحقا طوال حياتك، واليت النّظر إلى المشهد المثير حدّ التّقزّز، باندهاش كبير يحاذي الذّهول المقرف تقريبا.

و صحت بصوت يكاد يكون مسموعا هذه المرّة :

«لا ! ليس هذا بالخيال، و لا بأضغاث أحلام هذا الذي يقع على مرآي.»

تصمت برهة و أنت تتابع المنظر النّزق المقزّز الذي كاد يجعلك تتقيّأ أحشاءك، مضطربا، قلقا، و هو يتمادى في استثارتك، ثمّ تنتفض كمَن لدغته أفعى :

«ما أراه حقيقة لا يرقى إليها الشّكّ، واقعا مجسّدا و مفصّلا، ليته حلما مزعجا كان، ما أن أصحو حتّى تتبدّد غشاوته و تتلاشى بعيدا.»

حاولت أن تتقدّم نحوها، لتستطلع الأمر عن قرب : خطوة، خطوتين، ثلاث، و...، ثمّ تتوقّف بغتة، كأنّ قوّة خفيّة، مجهولة المصدر و الهويّة، تردّك و تصدّك في غير ما رفق، معلنة عن تخاذلك، أحسست أنّه قد شلّ قدميك، سمّرهما في مكانهما، و منعهما من مواصلة الحركة و التّقدّم إلى أمام، و مومئا إلى جبن فاحش أحكم بخناقه عليك، كخصم عنيد صعب المراس.

كنت كالقابض على الجمر، عاودك التّساؤل الحارق المثقل بالهمّ و النّكد و الشّجن مجدّدا :

«لو كانت رفقة إحدى صديقاتها، و هي على تلك الحال، كما حدث في ثاني لقاء جمعني بها، حين تضاربنا موعدا عند المكتبة الجامعيّة، لهان الأمر كلّية، بل لاستسغت تصرّفها، دون أن اضطرّ إلى التماس الأعذار لها، و لكن... ؟!»

كان هناك أكثر من علامة استفهام، تلوح في ذهنك باستفزاز قاتل، رايات تتطاير خفّاقة، منتفضة في هذيان و خبل، متّصل بعضهما ببعض :

«هل هي على علاقة بشخص آخر، وأنا، كالمغفّل، لا أدري، لن يكون قطعا وجزما إلاّ هذا الذي قبالتها الآن، و هو يجاذبها

أطراف حديث ممتع و شيّق، لا أدري إن كان سيطول أم سيقصر، حلاوته و طلاوته، من الواضح، أنّ العين لا تخطئهما !؟»

« ترى من يكون هذا الذي تجرّأ على مزاحمة من علق بها قلبي !؟ أيجرؤ أن يفعل ذلك معي أنا !؟ أيّ وغد سفيه هذا ؟!»

«هي.. تراها من تكون ؟!»

«هل هي فتاة لعوب، ضحكت على ذقن مغفّل مثلي، لا ترى الحبّ إلاّ مصيدة، توقع فيها كلّ عشّاقها، الواحد بعد الآخر، تلقي بهم من عَلٍ إلى أسفل السّافل من الحضيض، تلحق بهم شرّ الهزائم، تجعلهم فرسانا بسيوف من خشب، يصارعون الوهم بوهم آخر رديف له حتّى الحتف..!؟»

تصمت برهة من الزّمن، بعدما باغتتك شهقة ما، ثمّ تواصل بوحك الحزين، المنكسر، بكلمات متشظّية، متخاذلة، لا تكاد تقدّم و لا تؤخّر :

«أ و و و و ه !»

«لا !»

«أبدا !»

«لا أظنّ أنّها كذلك.»

«ابتساماتها التي كانت تبرق بها إليّ، بكلّ تلك الرّقّة و النّعومة و الصّفاء، و حديثها الممتع، الشّيّق، و العفويّ إليّ، تتجاذبه معي في إمتاع و مؤانسة، كلّ هذا و غيره كثير، لا يشي بأنّ الفتاة على نحو ما رأيت من رأي فيها، من صدق في الودّ و إخلاص له.»

«و ماذا أيضا ؟!»

«رأيته يمدّ إليها يدا مشوقة لمصافحتها، ما ينبئ عن أنّ موعد افتراقهما قد أوشك».

«أعلم ما يمكن أن ينجرّ، جرّاء مصافحة كهذه، من شعور و إحساس.»

«ستحسّ بالأصابع الطّويلة القويّة، تلتفّ حول يدها، ذات الأنامل الرّقيقة الغضّة، ثمّ يكفي هذا التّلامس لأن يكون مفتاحا يلج الثّقب، لينفتح له بابها على مصراعيه، ثمّ، في مرحلة أخرى، يتوسّدها و يتلحّفها في كبرياءِ و زهوِ فاتحٍ مظفّرٍ.»

ظللت ترنو إليها و هي منصرفة، و بدلا من أن تعمد للّحاق بها، هرولت مصعوقا في الاتّجاه المعاكس الآخر.

تركت كلّ شيء خلفك لغزا، لم تصبر على استكناه كنهه.

بمجرّد أن شارفت الحيّ الجامعي للذّكور، ولجت الغرفة رأسا ملقيا للتّوّ بنفسك على السّرير الواطئ، في حركة متراخية تماما، واضعا يديك تحت رأسك المصدوعة، وأحسست بالظّلام و قد ساد أنحاء الغرفة في صفاقة الضّباب، يلفّ حنايا نفسك لفّا و يغطّي على كلّ جوانبها، بعد أن أطفأت نور المصباح القابع على يمين مضجعك، و انتهت ليلتك الجريحة المنكوبة في أعزّ ما تملك، إلى كثافة غير مسبوقة، أثارت فيك هواجس اليوم و وساوسه، فلطالما أنار قبس طيفها الجميل، قبل الحادثة، لياليك الحالكات و زانها، و الذي لم يعد اليوم يُرَى إلاّ بصورة القبح و الذّمامة.

اللّيل القاتم ذاك الذي أعقب النّهار، وأيّ نهار ؟! كان كابوسا أطار النّوم من عينيك، بعد أن حاولت عبثا استدراجه، فقد مُنيت بفشل ذريع.

اللّيلة اللّيلاء تلك انتهت إلى صفحة، استفزّك بياضها بشراسةِ وحشٍ كثير الضّراوة.

تقلّبت علىٰ جنبيك، و لكنّك عجزت عن السّبات العميق تماما ، كان اللّيل في هزيعه الأخير على ما يبدو ، حين استسلمت للكرى، دون أن تشعر أو تدري كيف أخذتك الإغفاءة.

12

انتهى الأرق بك إلى حالة سبات عميق، لم تصحُ عقبها إلاّ في ساعة متأخّرة من نهار ذلك الغد.

دنوت من المرآة، انعكس عليها وجه متعب، متغضّن من فرط أرق ليلة أمس تلك، و مع ذلك فقد ارتسمت فيه حدّة ما، و برز على ملامحه توتّر و قلق لمْ تقوَ على مُداراتهما، و على ثغره ارتمت ارتجافات حزينة، تنبئ بأمر ما غير محمود العواقب.

امتدّت كفّك إلى وجهك في قسوة، ثمّ أسقطتها لتتحوّل راحة يدك إلى قبضة معصورة، منتفضة العروق، رحت تضغط عليها بعصبيّة، كدت تهوي بها على تلك الصّفحة المصقولة العاكسة، بيد أنّك تراجعت، دون أن تشعر، في آخر لحظة، كأنّ شللا مَا قد داهمها في النّهاية.

عاودت النّظر إلى شحوبك بكلّ الحقد و الضّغينة الدّفينين، و كأنّ الوجه غير وجهك.

ابتعدت عن المرآة كمَن يحاذر شيئًا كريها، و جلست على كرسيّ خشبيّ متقادم العهد، ثمّ فكّرت : «لا يمكن ! غير

معقول ! مستحيل أن أكون كالزّوج المخدوع، آخر من يعلم بالخديعة. »

انصرفت صافقا الباب خلفك، و عرّجت على أقرب مقهى، محاذٍ للحيّ الجامعي بـ «بن عكنون»، كما تفعل عادة عند الصّباح.

عندما رفعت إلى فمك، فنجان القهوة الذي أحضره لك النّادل، بطلب منك منذ حين فقط، لاحظت أنّ الارتعاش مازال يلازم يدك اليمنى.

صدمتك الذّكرى السّيّئة، و تحت تأثير الخجل، سارعت إلى نزع الفنجان من يدك، مودعا ذهنك للشّرود، يطوّح به بعيدا.

بإمكانك الآن أن تنزع كلّ شيء إلاّ طيفها، و بوسعك أن تنفض يديك من أيّ أمر، كائنا ما كان، إلاّ من أمرها هي تحديدا و تدقيقا.

صارت هاجسك الأوّل و الأخير، مبتدأ شجنك و منتهاه، يؤرّقك طيفها السّيّئ الذّكر، حتّى في وضح النّهار، بعد أن قضّ مضجعك ليلا.

تُرى.. ماذا أنت فاعل الآن، كيف ستتصرّف، و بأيّ طريقة، و ما حدث قد حدث !؟

أيّ موقف أو قرار ستتّخذ، فالأمر خطير قد لا يستدعي التّأخير للبتّ فيه..!؟ و مع ذلك لا مجال للعجالة حتّى لا يكون هناك مكان للآئمة و التّقريع، و لكنّ الخطب جلَلٌ.

هل تُسقِط رأسك بين يديك، ثمّ تنخرط في نشيج مرّ كما الأطفال، تتقطّع له الأكباد، و تتفطّر من أجله القلوب.

عاودك تفكيرك الشّارد، بعد فاصل زمنيّ وجيز : «لقد انتهى كلّ الأمر، كلّ شيء بيننا انتهى إلى غير رجعة، ذهب و لن يعود ثانية، لن تجمعني بها بعد الآن أيّ وشيجة، لن أسعى إليها بعد اليوم، مهما يكن من أمر».

«من اليوم فصاعدا، بل من نهار أمس، سأوقّع على مرسوم بأثر رجعيّ، في مبادرة انفراديّة، يقضي بحظري من الالتقاء بها أو الاستماع إليها، قرار المقاطعة و القطيعة، و لو من جانب واحد، لن أعود عنه، هذا وعد حرّ، ربّما، سأقطعه عهدا على نفسي، اعتبارا من اليوم...»

لا تظنّك ستتعافى من أثر بلوى البارحة، أو تنسى ما حدث فيها، سيظلّ يوم أمس وشما لن يمّحي، ربّما، إلاّ بعد سنوات، إن حالفك الحظّ في ذلك، جرحا غائرا، ربّما، لن يندمل إلى الأبد، اللّهمّ إلاّ بقدرة قادر، شبحا سيمعن في ملاحقتك، سيطاردك في حلّك و ترحالك، كابوسا يملأ عليك دجاك كلّه، بل و يصيّر نهارك كليلك تماما.

التّوتّر يزداد عددا و عدّة، الانقباض هو الآخر يتفاقم بضراوة.

حالة حصار كلّيّة، الطّوارئ آن وقت الإعلان عنها على الفور، لابدّ من استحضار رجال الإطفاء، دون أدنى تأخّر، فالحريق المهول شبّ و قد يأتي على الأخضر و اليابس معًا، فلا مجال للمماطلة و التّلكّؤ، ممّا قد يعقّد الموقف، و يؤزّم الوضع أكثر.

لحظة ارتباك عارمة، شاملة، فقدت السّيطرة عليها تقريبا.

أنت الآن محاصر حتّى من نظرات بعض الفضوليّين، فقد راح أكثرهم يسترق إليك النّظر استراقا...

لم تهتم للأمر، لم تبالِ بشيء، كنت مشغولا بها هي و فقط.

في رمشة العين، أو في لمح البرق، وجدت نفسك خارج المقهى، مهرولا في الشّارع الطّويل، كمن به خبل، لا تكاد تلوي على شيء.

غادرت المقهى تحت نداء النّادل وصيحاته، في بادرة مثيرة، الأغرب كانت يومها، اندهش لها روّاد المقهى، بل وقعوا في ذهول منها، فكان أنِ الْتفت نحوك أكثر من واحد، أبصروك مواليا لهرولتك المباغتة، ثمّ تشاكل عليهم الأمر : أيضحكون حدّ القهقهة هازئين بك، ساخرين منك أم يحزنون حدّ الرّأفة و الإشفاق، نداء النّادل في النّهاية ذهب أدراج الرّياح، وهو عبثا يلوّح بيده.

تركت سطح الطّاولة كما هي: الجريدة التي اقتنيتها نهار اليوم متأخّرا، وفنجان القهوة البارد الذي لم تحتسِ منه و لو بضع قطرات، بل بقي كما هو.

الجريدة و فنجان القهوة، هذا كلّ الذي تبقّى، من ذاكرة مجروحة، حزينة حتّى الشّرخ.

الجريدة و فنجان القهوة، و فقط، هما في النّهاية، الشّاهدان الواحدان الأوحدان، على حالة يتم مباغتة، لست تدري إلى غاية السّاعة، إن كانت ستكون جزئيّة و ظرفيّة، أم أنّها على النّقيض من ذلك، ستكون كاملة و مستديمة.

هل هي نهاية البداية، أم أنّها لا تعدو كونها بداية البدايات.

سؤال حارق كهذا، لا جواب له حتّى إشعار آخر..

سيظلّ عالقا بين اليابسة و الجوّ، مؤجّلا إلى تاريخ لاحق..

متى ؟ أين ؟ و كيف ؟ لا تدري ! أنت في جهل مطبق عن ذلك، دع ذلك للأيّام و فقط، فهي الكفيلة دوما بترتيب المواعيد و تحديدها في الزّمان و المكان، أمّا نحن فلسنا أكثر من أداة إنجاز، تقوم بمهمّة أنيطت بها.

لستَ تدري !

الأدهى و الأنكى أنّك لم تعد تؤمن بافتراضيّة تواجد هذا اليوم، و لا حتّى بإمكانيّة حلوله، فالقلب الذي أحبّ بصدق، و أخلص لها أيّما إخلاص، أعلنت هي بحماقتها النّكراء تلك عن وفاته يوم أمس.

أريق دمه على صليب ذلك المشهد المربك المثير، فهل له الآن و بعد كلّ الذي حدث، أن يوهم نفسه بأنّه ما زال حيّا يُرزق، على قيدِ هوَى تلك التي طعنته من الخلف بخنجرها المسموم، طعنة الخيانة النّجلاء الغادرة، وأعطت الأمر بتنفيذ الإعدام فيه، ببرودة دم عجيبة، أو كما تراءى له الأمر، على الأقلّ حتّى الآن، بعد أن حسبها ملاكه الذي يمشي على الأرض ؟ ثمّ، هل هناك موبقة أقرف من هذه ؟ كلاّ.. !

أنت من سار في جنازته، من شيّعه إلى مثواه الأخير، أنت من غسلته و كفّنته و أبّنته و صلّيت عليه صلاة الجنازة، ثمّ واريته التّراب.

فهل لك أنت الآخر، و بعد أن رأت العين ما رأت، أن تُوهم نابضك الولهان هذا بأنّه ما زال يوالي حياته في عافية موفور

الصّحة، ينبض لتلك التي طعنته من الخلف، و جرّدته من أنبل شعور فيه، و أفرغته من أسمى معنًى، و حرمته من أجمل إحساس في الوجود على الإطلاق ؟ الثّقة و الإخلاص، الصّدق و الوفاء أشدّ القيم نبالة و سموّا، فلا مجال ثمّة للمساومة فيها و لا إمكانيّة للتّنازل عنها، بل لا سبيل إلى التّغطيّة على حقيقة ناصعة البياض، رغم قتامتها الفاحمة السّواد.

13

أخيرا لم تجد إلاّ الجريدة، ملجأ تلوذ به وتحتمي، بهذا المكان بإمكانك أن تنزع كلّ ما فيك من شحنات، ترسّبت في أعمق الأعماق، إنّه المكان الوحيد تقريبا الذي ستجد فيه راحتك و تستعيد فيه، ربّما، هدوءك المفتقديْن قسرا و عنوة.

ها أنت ذا الآن في قاعة التّحرير، تشعر ببعض العزاء، و القلم بيدك تجريه على الورق المستفزّ بياضه، ليس مهمّا ما ستخطّ، الأهمّ أن تطلق سراح جميع النّفثات، التي ظلّت حبيسة بصدرك.

و في لحظة مداهمة، رنّ الهاتف الذي كان قبالتك، منتصبا على طرف المكتب ببلاهة، تباطأت في رفع السّمّاعة، بل لم تكن لديك النّيّة مطلقا في رفعه، و الرّنين لا يزال متواصلا : «طــان، طــان، طــان،.....»

ترفعه أخيرا دون أن تستفتح على اتّصالها هذا، فقد أبقَيت على الخط دون تواصُل معه.

تتفاجأ بصوتها :

«ألو، جمال !»

«ـ..... !؟»

«أهلا جمال !»

«ـ..... !؟»

«حياة.. من معك !»

يا إلهي !

هذا صوتها، مؤكّد، إنّها هي حقّا، لا أكاد أصدّق، أبلغت بها الجرأة هذا الحدّ لإذلالي و تمريغي أكثر في دنس وحلها الموحل ؟ لماذا اتصّلت بي وقد فعلت بي ما لم يخطر على بال ؟ ماذا تريد منّي بعد كلّ الذي حدث ؟ أتودّ اغتيالي مرّة أخرى، أم تراها تريد الاعتذار لي عن جرم اقترفته يداها الملطّختان بدمي، الذي ظلّ هذا النّابض الولهان، المعنّى بحبّها يضخّه لها في غير ما توقّف، دون أن يُبديَ أدنى ضجره أو يبرز أقلّ حرجه !؟

تضاحكت بمرارة و أنت تنزل السّمّاعة من يدك اليسرى، معيدا إيّاها إلى مكانها كرّة أخرى، جثّة هامدة الأنفاس، ردّة فعلك تلك كانت أقلّ ما كان ينبغي عليك القيام به تجاهها، و كأنّك تعترف بصراحة منتهية بأنّك تلقّيت ضربة، ربّما، ستكون قاصمة في القريب العاجل.

«تُرى لِمَ تمعن في تعذيبي هكذا ؟! علام تودّ في إصرار، تذكيري بانكسار أرغب في نسيانه أو تناسيه على الأقلّ، إن كان أمر نسيانه، راهنا، على الأقلّ، من المستحيلات السّبع ؟!»

تنحّيت عن القلم و الأوراق، التي لم تدبّج عليها سوى بضع كلمات يتيمات، و شردت بذهنك بعد أن عاودك طيف المشهد الجارح المميت، الذي نزل عليك صاعقا، على حين غفلة.

«يا إلهي ! ما كلّ هذا العذاب ؟! و هذه البليّة كيف نزلت عليّ أو طلعت إليّ ؟ لم أكن يوما أعتقد أنّ الغدر قد يأتي من الذين نحبّهم أصلا، لأنّهم الأقرب إلينا، ولأنّنا نأتمنهم ونطمئنّ إليهم، ولأنّهم موضع ثقتنا، احفظِ الدّرس جيّدا، فالغدر قد يأتي ممّن هو محلّ كلّ ثقتك.»

جئت إلى الجريدة لتنسى، أو تتناسى ما حدث لك، فتأبى هي إلاّ أن تتّصل بك، لتزيد الجرح غورا و تنكيلا.

«لماذا كلّ هذه السّادية ؟! أهي فعلا فتاة لعوب، يحلو لها و يلذّ، أن ترى حبيبها يكتوي بجمرة الخيانة، يتلوّى وجعا مثل أيّ جريح في الدّنيا، يعاني من إصابات بالغة الخطورة، دون أن تأبه لآلامه، دون أن تأخذها الشّفقة عليه، أو الرّأفة بما يكابد من أوجاع ؟!»

«لا أتصوّر أنّني سأعود إليها يوما، أطال الأمد بي أم قصر، مهما تحجّجت و تعلّلت، مهما استفاضت في شرح موقفها ؟ أمر كهذا لا يعنيني البتّة، لا مجال هنا لتبرير ما لا يُبرّر، الخطأ فادح و الذّنب كبير، و على القصاص أن يكون في حجم الضّرر ؟!»

«هذا خياري النّهائيّ و الأخير، لم يبق لي شيء آخر، أخشى عليه من الفقد، غير أن أضع ذكراها في خزانة الأرشيف، أغلق عليها في الرّفّ، و أدعها عرضة للرّطوبة، لن ترى ضوء النّهار، و لن تتشمّم نسيم الهواء، سترافقها العتمة كلّ الوقت،

ستتحوّل أيّامها إلى ليل طويل بهيم، ساكنا سكون الأموات، لا يعقبه نهار جميل أبدا، كلّ ما بيننا من جميل و حلو و رقيق انتهى برمّته، إن كانت تجهل ما أنا مقدم عليه، أو تتجاهله فلسوف تراه و تعلمه لاحقا علم اليقين. »

أحسست بمشاعرك تتدافع بداخلك، في غير ما انتظام و لا انسجام، متزاحمة، متنافرة ومتلاطمة، وكأنّ المجال الآن مفتوح على عراك حتّى الموت.

يومها حاولت أن ترتدّ على عقبيك، مبتعدا عن مكان الواقعة، التي هزّت أعصابك هزّا، محدثة فيها رجّة كبرى، و لكنّك في الأخير أبيت بجَلَدٍ إلاّ أن تواصل رحلة عذابك، مع المشهد المقرف، المريع و الرّهيب، الذي بذر في نفسك بذور الرّيبة و النّقمة و التّذمّر و التّبرّم.

أحسست بأعصابك تحترق، و كأنّ نارا قد أُضرمت فيها، بنيّة مقصودة و فعل إراديّ، و بدمك يغلي و يفور تحت نار اللّوعة و الأسى، توقدها مشاعر الأنفة و الإباء و الغيرة، و بمفاصلك ترتجف ارتجافات خافتة، و أنت بعد مصدوم بلعنة ذاك الاكتشاف المخزي.

يتناهى إليك رنين الهاتف ثانية، تتجاهله تماما آبيا أن تصافح اليد التي لطّختك، آليا على نفسك أن تمضي مع قارب شرودك، حيث اللاّمكان و اللاّزمان، متخطّيا كلّ المسافات و الأزمنة، تكتفي بشرودك مع تلك الذّكرى الحزينة الموجعة.

عيناك السّوداوان بدتَا غائرتين، داهمك إرهاق متسابق، على مقربة من خطّ الوصول، بعد سباق ماراطونيّ صعب

و شاقّ، الاستعداد له يحتاج إلى وقت طويل و جهد معتبر.

تدفّق الاحمرار إلى وجهك، لعلّه فورة الغضب و السّخط و النّقمة، الفورة التي تسبق الانفجار عادة، أحسست بداخلك بركانا، كان عليه أن ينفجر، ملقيا من فوهته بكلّ تلك الحمم الحارقة المميتة.

فجأة انتفضت بحميّة و إباء، كمن يرغب في غسل عار لحق به، أردت أن تتّجه رأسا إلى ذلك المعتدي، الذي بيّت لك نيّة غزوك و احتلالك، بعد أن جاوز حدوده، و تعدّاها إلى تخوم غير تخومه الممنوع عنه.

«تُرى ! هل كانت لديه من قبل، أطماع مرصودة لإمارة، أنا القيّم الشّرعيّ على تولّي إدارة شؤونها ؟!»

«مغرور !»

«متبجّح !»

«وغد !»

«قذر !»

«ما الذي جعله يحشر أنفه في ما لا يعنيه، هي الحدّ الفاصل بينه وبيني، فما الذي جعله يجرؤ على تخطّي المحظور و تجاوز الممنوع ؟!»

«هي المدخل المفضي إلى عريني، فما الذي دفعه لأن يدير المقبض في ثقة عمياء، و لا مبالاة، عواقبهما غير محسوبة، لينفتح له الباب على مصراعيه، ثمّ يلج الدّار، دون إذن من صاحبه ؟!»

«هذا الفتى وقح ! ينبغي أن يؤدّب، توجب معالجته كيفما اتّفق ! »

«ما وراء هذا الاعتداء الصّارخ على الحرمات ؟! ألا يعلم هذا الشّابّ الغرّ، الأحمق، المتهوّر، أنّني مقبل على طلب يدها من والدها، بعد أيّام أو أسابيع أو شهور من الآن ؟! لا تهمّ المدّة الزّمنيّة، الأهمّ أنّني أنوي فعلا التّقدّم إلى خطبتها، حتّى لا يطمع فيها غيري... »

و لكن لماذا لم تبح لها بهذه الرّغبة الدّفينة، كان عليك أن تصارحها الأمر، أو على الأقلّ، أن تلمّح لها به.. !؟

«هي أولا إحدى غيرها، لن تكون إلاّ لي، لي أنا وحدي، لن ينازعني فيها منازع، مهما يكن من أمر، و أيّا كان الثّمن، أنا من سيظفر بقلبها في النّهاية، حتّى و إن كان مهرها قمرا، أجيئها به ثمّ أضعه بين يديها، إن شاءت.. »

تملّكك ذهول شديد الوطأ، جعلك تتراجع خطوات إلى الخلف، أصمّتك الصّدمة و أبكمتك، كانت وقفتها تلك مريبة للغاية، مثيرة للدّهشة، و لو على مرأى المارّة و مسمعهم..

الصّورة موجودة في غياب الصّوت، حاولت أن تتخيّل ما كان يجري بينهما من حوار حميميّ حارّ و لا شكّ، يبدو أنّه قد أخذ بعدا آخر، و شرع يزداد متعة و تشويقا، و ما أدراك، فقد يفضي إلى موعد للقاء سيجمعهما قريبا..

لا عليك !

الموجود و المتاح يفيان بالغرض، و إن في غيرِ مَا وضوح تامّ، ستتولّى أمر التّأويل بنفسك، ستبذل قصارى الجهد

لمعرفة ما يحدث، ستجتهد على طريقتك الخاصّة في شرح الحادثة و استنباط معطياتها، و في تحليل و تعليل الدّوافع، و في تمحيص كلّ إشارة أو حركة تصدر عنه، و بخاصّة هي على وجه التّحديد و التّدقيق، هي القفل و المفتاح، و عليه، فعليها ستعوّل في تقصّي الحقائق كلّ التّعويل..

بدت الحيرة في عينيك، أيّ موقف بائس هذا الذي أنت في مواجهته الآن ؟! لست أوّل من خُدِع ويخدع، ولا آخر من سيتلقّى قلبه طعنة الخيانة النّجلاء، فقد سبقك الأوّلون إلى ذلك، و هم كثر، و لا فخر، و سيلحق بك آخرون، هناك خيانة دوما في مكان مَا مِن العالم، طالما هناك وفاء و إخلاص، سنّة اللّه في خلقه، و بعد، و هل الحياة إلاّ هذه الأضداد و النّقائض، تقوم عليها مجتمعة ؟!

لا تهتم و لا تغتمّ، فلْتلق كلّ شيء خلفك، و لْتبدأ من جديد، فهذه ليست إلاّ جولة من معركة شاقّة، طويلة النّفس، صعبة المراس، فلْتطوِ هذه الصّفحة من دفتر عمرك، و لْتفتحْ صفحة أخرى جديدة كلّ الجدّة..

أخيرا تنفّست الصّعداء، بعد انصرافهما كلٌّ على حدة، فقد سار كلّ منهما في اتّجاه معاكس، سرّك بعض الشّيء منظر افتراقهما على ذلك النّحو، و كأنّما شخص ما قد فكّ قيودك، و بدوت أقلّ توتّرا و أكثر اطمئنانا..

هذا مشجّع للمعنويات، مؤشّر دالّ على ارتفاعها، بعد هبوطها هذا الهبوط المريع، على الأقلّ لم ينصرفا معًا، في خطوات تجمعهما جنبا لجنب، فلا داعي للتّوجّس خيفة، من موقف

قائم حتّى الآن لا يزال الإشكال يشوبه، و لا داعي للمبالغة في اختلاق المزاعم..

«ولكن... ما أدراني أنّ موعدا ما سيلوح في الأفق، سيجمعهما عمّا قريب، بالتّأكيد هو من اقترحه عليها، و لعلّه قد حظي لديها بالقبول..

«أو و و ه !»

«اللّعنة.. !»

«اللّعنة على كلّ هذه الوساوس، التي ما انفكّت تملأ هذه الرّأس المثقلة بهمّ مقيم، كشظف العيش و نكده، كنت في غنىً عنه..»

«اللّعنة على ضباب الرّيبة الذي يغطّي على إشراقة الحقيقة و صفائها، و يقتل أجمل ما فينا من نبل المشاعر و الأحاسيس..»

«لعنة اللّعنات على ذاك اليوم المشؤوم، الذي ساقني فيه القدر لرؤية ما لا يسرّ و ما لا يرضي إطلاقا..»

«آه !»

«ليتني كنت شيئا غير مذكور، ليتني كنت نسيا منسيّا، قبل ذاك اليوم اللّعين، ليتني كنت ترابا، قبل أن أواجه ببشاعة ذاك الموقف و فظاظته..»

14

تاه قارب تفكيرك، في عرض بحر متلاطمة أمواجه مصطخبة، دون أن تهتدي إلى شاطئ آمن، ترسو به على مرفئه.

أفكار شتّى تتنازعك، تتقاذفك مثل جلد منفوخ، تتراكض خلفه أقدام اللاّعبين، في ميدان لكرة القدم، تتحرّك و تنطّ مثله من مكان إلى مكان، و لا تكاد تستقرّ على حال.

كان ذلك اليوم القريب كالجرح البارز الغائر أيضا، القبيح المنظر لا تريد أن تتذكّره، كنت قد ضربت بقبضتك على راحة يدك، بغضب مباغت و أنت تقول في مرارة :

«شوف ! شوف بلا ما تسمع ! شوف العجب قدّام عينيك ! »

أحسست بالدّموع تلسع عينيك، تتجمّع بمآقيك، و لكنّها عبثا تُذرف، فقد كنت لها بالمرصاد، تحبسها كلّما أرادت الانطلاق قسرا و عنوة، لقد كنت عصيًّا على الدّمع حقّا.

الرّجال يتألّمون، أجل ! و لكنّهم قلّما يبكون، لا يذرفون الدّموع السّخيّة إلاّ نادرا، رجولتهم تأبى أن تسيل دموعهم في سخاء قلّ نظيره.

« لقد حرق الوغد قلبي عليها، إنّها الحقيقة المرّة، ناصعة البياض بالرّغم من قتامتها و سوادها الكالح. »

شعرت بإحباط لم يسبق لك و أن شعرت به من قبل، معنويات هابطة هبوطا مريعا، حادّا، حاذت درجة الصّفر، وقاربت ذيل الحضيض، كانت على الحافّة تكركر نفسها بنفسها، مثل سكّير تعتعه السّكر، يتحامل على نقل نفسه تحاملا.

«لقد اجتمعنا بغير ميعاد، و ها نحن سنفترق بغير ميعاد أيضا..»

«ما ابتدأ كان يجب أن ينتهيَ سريعا !»

«يا لعبث الأقدار !»

للأسف لم يُرِحْك ما تراءى لك، حاولت أن تكبح من جماح أفكارك الطّاغية هذه، فما أفلحت في النّهاية..

هناك ذكريات سيّئة علينا بتناسيها، هذا أقلّ الواجب، على أقلّ تقدير، إن كان أمر نسيانها مستحيلا، فالذّكريات الحزينة كمثيلاتها السّارّة، تظلّ جزءا من الماضي، شئنا أم أبينا، بل إنّ الذّكريات السّيئة ذاتها، لأشدّ وطأة و سطوة من غيرها..

«طـان، طـان، طـان، طـان،.....،.....،»

باغتك رنين الهاتف ليقطع عنك شرودك الذي طوّح بك بعيدا، تلكّأت حتّى تلك اللّحظات في رفع السّمّاعة، في حين ظلّ الهاتف يهتف لك رنينه المتّصل بعضه ببعض، مذكّرا إيّاك بأنّ شخصا ما في انتظارك، كثير الإلحاح في طلبك، و أنّه و راءك و الزّمن طويل :

«طـان، طـان، طـان، طـان،.....،.....،.....»

تفاجئك موالاة رنّاته في تتابع منتظم، و لكنّك حتّى الآن لم تحفل باستغاثاته الشّتّى، راهنت على إزهاق روحه في الأخير، مهما طال به أمد الرّنين اللّعين المتواصل، دون أن تمتدّ يدك إلى عنقه لليّها..

و لعلّك كنت مدركا أنّ المتّصل، يستحيل أن يكون شخصًا آخرَ غيرها، بل لا يمكن أن يكون إلاّها لحما و شحما، و ما كنت تخشاه أن تكون المكالمة لغيرها، لهذا السّبب عزمت على أن ترفع السّمّاعة استجابة لدعوة الدّاعي، بيد حدسك لم يخب فقد كان صوت المتحدّث صوتها هي، تأكّد لك ذلك بعد أن سحبت سمّاعة الهاتف من مكانها إلى أعلى، دون أن يقرّ قرارك على ذلك، و كأنّ تصرّفك جاء من قبيل عفو الخاطر الذي لم يكن منتظرًا على ذلك النّحو : «ألو..! ألو.. !»

أنتَ منْ كان يتعيّن عليه الرّدّ، و لكنّك أعفيت نفسك من مهمّة قذرة كهذه، ألقيت بعبء تنفيذها كاملا غير منقوص على كاهلها هي :

«ألو..! ألو.. ! ألو.. !.....»

تباطأت في الرّد عليها و الاستجابة لها، ربّما، نكاية فيها، كما لو أنّك ترغب في أن توقع بها، أكبر قدر ممكن من الأذى، و أن تردّ لها الصّاع صاعين.

«ألو ! ألو ! ألو ! ألو ! ألو !.....»

تمنّيت لو تُنهي اتّصالها الحارق هذا، بمقصلة تأتي عليها من عَلٍ، وددت لو تخرس صوتها الكريه، النّاشز، المتنامي، المتناهي إليك دوما، بقبضة من فولاذ تخنقه خنقا.

«ألو ! ألو ! ألو ! ألو ! ألو !.....»

قرّرت أخيرا بعد تردّد، حين نزعت السّماعة من جهازها و أبقيتها واطئة مع ذلك، أن ترفعها حذو فمك و أذنك اليسرى، لتردّ عليها في تجاهل واضح :

«نعم، من معي ؟!»

«هل هذا وقت مزاح، تتساءل مستوضحا، وكأنّك لا تعرفني.. ! ماذا أصابك اليوم !؟ ما هذا التّجاهل !؟ أأشتمّ منه رائحة ما !؟»

كنت تجلس و بيدك السّمّاعة راكدا، جامدا، خامدا، هامدا، منطفئ الحواس تماما، دون أدنى حركة تماما، كأنّما تحوّلت فجأة، و بقدرة قادر، إلى صنم قابع في مكانه ببلاهة، أو كمحتضر يبدو بتعابير وجه شاحب، توحي بدنوّ ساعة رحيله.

«جمال ! أستحلفك باللّه ماذا هناك !؟»

وجدت كلماتها هذه صدى في نفسك، أخيرا تجيب على مضض :

«أنتِ مَن سيخبرني بالذي جرى..»

«لماذا قطعت المكالمة في وجهي ليس مرّة ؟! بل لم تتحمّل حتّى عناء الرّدّ عليّ، كما تجري به الأعراف، أيّ إهانة هذه ؟!»

و بحنق قلت :

«سلي نفسك.. !»

تملّكتها الدّهشة من لهجتك المحتدّة هذه غير المعهودة عنك، و التي بدت لها غير طبيعيّة تماما، و مباغتة كالصّاعقة، فما الذي يمكن أن يكون سببا في تغيّرك و تبدّلك، لم تفهم شيئا

ممّا يحدث الآن، بل إنّها لا تكاد تصدّق حرفا واحدا ممّا تفوّهت به على المطلق، و كان ذلك كافيا لأن يكون مبعث اندهاشها و هلعها.

فغرت فاها، و لم تعد تدري ما تقول، كان عليها أن تستفسر الأمر، وتستوضح الدّاعي إلى موقفك منها المفاجئ هذا، و لكنّك باغتّها بقولك :

«هذا السّؤال أنتِ مَن سيتولّى الإجابة عنه أمّا أنا فلا أراني معنيّا لا بقضّه و لا قضيضه.»

قالت و هي في حيرة من أمرك :

«ماذا تعني بالضّبط !؟»

«تعرفين جيّدا ما أعني ؟!»

و بدهشة أشدّ حدّة هذه المرّة :

«جمال ! يبدو لي أنّك غير طبيعي اليوم، على غير ما جرت به العادة»

كان ردّك لها صاعقا :

«بل أنا في كامل قواي العقليّة، خبّريني فقط ما الذي حدث لأعصابك أنتِ ؟!»

«هل أسأتُ إليك و أنا لا أعلم، أنبئني، خبّرني إن كان ثمّة شيء، أرجوك ! لا أكاد أفهم ما يجري !»

رددت بسخريّة لاذعة، أصمّت أذنيها و وتّرت أكثر أعصابها، و وجل منها قلبها :

«ليتها كانت مجرّد إساءة عادية أو عفويّة، لو كان الأمر على هذا النّحو، لأمكنني تجاوزه و تخطّيه دون جلبة تذكر،

ولكنّه ذنب عظيم اقترفته يداكِ، وأنت الآن تتجاهلين أنّك مذنبة..!»

سارعت تقول و على شفتيها ابتسامة حزينة بمرارة الحنظل، و الذّهول يكتسحها و يطوّقها من كافّة النّواحي :

«ماذا تقول ؟! هذا هراء ! لا أكاد أصدّق ما أسمع !»

«إنها الحقيقة !»

ردّت بسرعة البرق، كمن يدافع عن نفسه، مسقطا عنه تهمة، أريد لها أن تُلصق به قسرا و عنوة :

«أيّ حقيقة ؟! أكاد أجنّ ! ما تراه حقيقة ليس أكثر من خيال عيِيّ !»

ثمّ بعد لحظة توقّف خاطفة :

«أو و و ه ! لا ! هذا ليس صحيحا على الإطلاق.. !»

تتنهّد ثمّ تستطرد في ذات السّياق :

«اسمع يا ولد النّاس ! أنت مخطئ في حساباتك، عاود عدّك جيّدا، و احرس هذه المرّة أن لا تخطئ، و إلاّ ستدفع ثمن خطئك عدّا و نقدا..»

«و تهدّدينني أيضا»

«لا أعني ما تعني»

و بلهجة أشدّ قسوة ممّا سبق كلّه :

«يا لكِ من مبتزّة رخيصة، تهينين مشاعري و تسترخصينها دون ما حرج، قلبك على حجر و قلبي على نار، تغيّرين نبضاتك مثلما تغيّرين ثيابك الدّاخليّة..»

وكمن يستشيط غضبا، بعد أن ضاق مجال الصّبر على سعته :

«احترس ! ما هذا الكلام السّخيف ؟! أجننت ! لقد تجاوزت حدود اللّياقة، انتبه لنفسك أحسن، بذاءتك مردودة عليك..! »

كادت أن تعيد السّماعة إلى مكانها في قسوة و عنف، فقد بلغ بها الغضب ذروته، و أوشك صوابها يطير، لتنهي بذلك معركة بدأت نذرها الأولى تلوح في الأفق، لكنّك قاطعتها قائلا في استفزاز جارح آخر :

«لديك الآن طارق جديد أليف، أمّا أنا فلم أعد إلاّ طارقا، تقادم عليه العهد، ولم تعد طرقاته تغريك في شيء.. »

«هل تعني شيئا من وراء هذا الغمز ؟! »

«الذي تدرين بالضّبط ؟! »

«دعنا من الألغاز، رجاءً، كن صريحا و هاتِ ما في جعبتك دفعة و احدة، فما من داعٍ لكلّ هذا اللّفّ و الدّوران »

«ذلك الفتى الذي كنتً تتحدّثين إليه، في وقفة يوم أمس، عند مدخل الجامعة، هو من أعني بالضّبط.. !؟ »

«زميل، مجرّد زميل.. ! أودّ أن تفقه هذا جيّدا »

«حدود زمالته من المفروض، أن تبدأ و تنتهي داخل المعهد، و ليس خارج أسواره.. »

«ماذا تقصد بهذا أيضا ؟! »

«أظنّ أنّ ما أقصده واضح لا غبار عليه، جليّ بما فيه الكفاية، ولا أراني مضطرّا للاستطراد أكثر من هذا،

و عليه لست مسؤولا، بأيّ حال من الأحوال، عن بلادتك و تنكّرك..»

15

لاحت لها كلماتك هذه، بالرّغم من وخزها الموجع، سخيفة، ساذجة، و طفوليّة، أردت من خلالها، ربّما، أن تنزل بها ما تستحقّ من عقاب، جزاء ما ارتكبته في حقّك من تجاوز أحمق، أساء إلى صدق مشاعرك تجاهها، و لكنّك لم تكن تدرك، أنّ كلّ ذلك كان من أمر الشّبهة، في حقيقة الأمر، لم يكن إلاّ بإيعازٍ من خيالك العيليّ، الذي جسّد واقعا لا وجود له أصلا، إلاّ في ما توهّمت من أوهام معتبرا أنّها حقائق، لا يرقى إليها الشّك، و لا تشوبها شائبة كائنة ما كانت..

و رغم تلك الحمم الحارقة التي تلقّتها من فوهة بركانك المنفجر، والتي لاحقتها في مطاردة شبه بوليسيّة مثيرة، و تساقطت عليها مثل حبّات البرَد، ناقرة قلبها الرّهيف الرّقيق، فقد تغاضت النّظر، و ظلّت متماسكة ما وسعها الجهد، ثابتة، موقنة أنّك أنت المخطئ و ليس هي، فمقامك عندها في علّيّ علّيّين، و لا أحد بوسعه أن يزحزحك منه، أو ينازعك فيه.

و الظّاهر أنّها لم تخطئ، حين قدّرت الموقف على هذا النّحو، و لم تجانب الصّواب أيضا حين رأت أنّك أنت من أخطأ

في حقّها و ليست هي، فكلّ ما تصوّرته بشأنها على أنّه حقيقة ناصعة البياض، لا يعدو أوهاما من نسج خيال عقيم، اختلقه تفكيرك القاصر النّظر، الضّعيف الرّؤية، السّطحيّ الإدراك.

ليس بعيدا أن تكون الغيرة المُبالغ فيها حدّ الشّطط، قد غشيت قلبك و أعمت بصيرتك، و لكنّ الأمر رغم جدّيته و خطورته بعض الشّيء، بالمقابل، سرّها سرورا يكاد يكون بالغا، فهذا دليل إضافيّ لشغفك و لتعلّقك بها، قائم الحجّة بذاته.

عادت من بعيد لتفضي إلى القول :

« يبدو لي أنّه من الصّعب، تباحث هذا الأمر معك، و أنت مبقٍ على هذيانك، مسترسل في شكوكك، فلنرجئ التّطرّق إلى هذا الموضوع بالنّقاش إلى وقت لاحق، من المفيد جدّا إرجاؤه، فقد ظهر عقمه جليّا، و لن يسفر إلاّ عن جدل لا جدوى منه.. »

« ..... »

« عليك أن تضع أعصابك في ثلاّجة، من الأفضل أن تتصرّف على هذا النّحو، فهو الأنسب لك، و إلاّ ستكون و بالا على نفسك و عليّ.. »

ظللت حتّى الآن ملازما الصّمت، و هي توالي مرافعتها الحامية، دفاعا عن نفسها، بكلّ ما أوتيت من قوّة الحجّة الدّامغة، كمن يحاول أن يبرئ ذمّته من جرم لم يرتكبه قطّ، في تفاني مَن يودّ أن يسترجع له حقّا ضاع منه :

« ثق أنّني سأظلّ في انتظارك ريثما تهدأ فورة غضبك، و تبرد نار أعصابك، بعدها بوسعي المجيء إليك، أجل، أنا مَن ستسعى إليك، لأفاتحك في الموضوع مجدّدا، أمّا و أنت

على هذه الحال، فلن أسمع منك و لن أتحدّث إليك، ثق من ذلك جيّدا..»

عقب ذلك ران صمت مطبق، أبحر كلّ منكما بقاربه منفردا، صوب اتّجاه معاكس تماما للآخر، بعد أن كان القارب الواحد جامعًا لا مانعا.

فكّرت : «و لكنّ الوقفة اللّعينة تلك، كفيلة وحدها بإدانتها، الموقف الذي كانت عليه كافٍ كدليل قائم الحجّة لا يمكن إنكارها أو نكرانها، لتوجيه الاتّهامات لها، الخطأ سيعدّ فادحا قد لا يغتفر، إن أبقيت على صلتي بها، إن تركته دون مواجهة حاسمة فاصلة، سيختمر في غضون أيّام لينتهي إلى تعفّن عفنٍ، عليها أن تتحمّل الخطأ بمفردها، العقدة التي عقدت يداها، عليها أن تفكّها بأسنانها، إن اقتضى الأمر ذلك، لن أمدّ لها يدي بعد اليوم، لست رخيصا إلى هذه الدّرجة، سأدوس على قلبي بقدميْ هاتين، سأجهز عليه بيديْ هاتين، سأحرقه على الشّوّاية حتى يستحيل دخّانا و رمادا، أو أدخله مبرّدا كي يثلج و يتجمّد هناك، هذه اليد البيضاء التي صافحَتها يوما سأبترها بترا، و لن تجد العضو الذي ستلامس بعد الآن...»

«صحيح أنّه لم ينفرد بها في ركن قصيّ، بعيدا عن عيون المارّة، غير أنّ الشّبهة ستظلّ قائمة، و لا جدوى من التّراخي في أمر خطرٍ كهذا، بل لا يمكن التّراجع، لقد قرّ عزمي على أن لا أتّصل بهاً أبدا، صونا لكرامتي، عليها أن تفعل هي ذلك إن شاءت، لا مانع عندي إن بادرت للاتّصال بي..»

« ألو ! »

« نعم، أنا في الاستماع.. »

أخيرا تناهى إلى سمعك شهيقها، أمّا أنت فتمتمت لتحطّم جدار الصّمت الذي علت أسواره كثيرا حولكما :

« لقد صافحك بحرارة، هل تنكرين ؟! »

« لا أنكر أنّ ذلك قد حدث فعلا... »

« و هل هذا قليل ؟! »

« مجرّد مصافحة بريئة، لا تقدّم و لا تؤخّر، لا أكثر و لا أقلّ.. »

« يا سلام ! مجرّد مصافحة، هكذا، بمنتهى البساطة.. ! »

« و هل توقّعتَ شيئا آخر ؟! »

« كنت أظنّه سيقبّلك بكلّ حرارة الشّوق، ولكنّه لم يفعل لسوء حظّه، و لعلّه قد أرجأ ذلك إلى موعد لاحق سيجمعكما قريبا.. »

« أفّ ! ما هذا اللّغو ؟! لقد أوجعت رأسي بكلّ هذا اللّغط يا هذا ! »

« أجل ! كان عليه أن يطبع قبلة حارّة على خدّك، ليكلّل اللّقاء بمشهد احتفاليّ بهيج، و هو يهمّ بالانصراف.. »

« للأسف، هذا الكلام جدّ سخيف، لم أكن أعتقد أنّك أنتَ مَن سيتلفّظ به، يبدو أنّك قد خيّبت ظنّي فـ... »

« أليس هذا ما كان يعوزه ؟! »

« الظّاهر أنْ ليس لكَ اليوم سوى العراك و المشاحنة، أرجو أن تفرغ من خناقك هذا، لقد صبرت عليك كثيرا فلا تجعل صبري

عليك ينفد، رجاءً ! دعني في سلام و إلاّ أنهيت خصامنا هذا، سأقطع المكالمة فورا إن لم تغيّر من لهجتك الوقحة هذه.. !»

«أعلم أنّك لا تمتلكين الجرأة على مواجهة الحقيقة، تتمادين في مراوغاتك اليائسة البائسة، محاولة منك للغطّ عليها، لأنّها موخزة، موجعة و جارحة، غير قابلة للدّسّ عليها، بل لا قِبَلَ لكِ بإنكارها و نكرانها جملة و تفصيلا»

سحبت نفسا عميقا، تململت محتجّة بقوّة :

«هذا ليس صحيحا على الإطلاق، و سأتحدّاك كلّ التّحدّي لا بعضه، إن شئت فَلْنلتقِ و جها لوجه، و سنرى المخطئ من المحقّ»

و لكنّها في الأخير، مع كلّ هذه الانتفاضة الجبّارة و الاستماتة في مجابهة نزقك ما وسِعتها المجابهة، استكانت كقطّة تموء وجعا.

«رجاء! لا تثر أعصابي، كفى ! باللّه عليك، لقد أوجعت قلبي هذا الذي لم ينبض لأحد غيرك، فرِفقا به و بصاحبته،ليس لي غيرك، أتفهم !؟»

«حيلتكِ لن تنطلي عليّ، لست غرّا ينخدع ببريق كلمات جوفاء، بعدما انطفأ و خبت جذوته..!»

«أرجوك ! لا تكن قاسيا معي إلى هذا الحدّ، أقسم لكَ برأسي، و برأس أبي و أمّي، و برؤوس كافّة أفراد العائلة واحدا واحدا، أقسم لك أنّني لست أبدا على علاقة بذلك الشّابّ الذي ذكرت، كما تصوّرت خطأ، الزّمالة هي كلّ ما يربطني به، و لا حتّى بغيره، صدّقني ! فأنا أقول الحقيقة لا شيء غير الحقيقة،

و عليك أن تُصدِّق لأنّني لم يحدث و أن ضحكت عليك، و لن يحدث أبدا »

مرّرت يدك على شعرك الأسود القليل الكثافة، ثمّ أرحت رأسك على كفّ ساعدك المسند إلى سطح المكتب، كمن استغرق في تفكير عميق، و أنت تفضي إليها قائلا :

«الحبّ ليس لعبة نتسلّى بها ونلهو، مثلما يلهو الصّيّاد بفريسته، الحبّ أملٌ يانع، نديّ، يافع، يجمع بين طرفين، عليهما أن يدفعَا معًا عربون الصّدق، والإخلاص والوفاء و الثّقة جميعًا... »

«كان بوسعي، يا آنسة ! أن أنال منك، عند أوّل فرصة سانحة، ثمّ أضحك عليك ملء شدقي في النّهاية ساخرا منك، مستهزئا بك، كما يفعل عادة سماسرة الحبّ و تجّار الأوهام.. »

«كان باستطاعتي أن أوهمك بأنّني أموت فيك حبّا، مغرم بك حتّى النّخاع، لتنقادي لي انقياد الشّاة إلى حتفها، بضع دقائق تستغرقها كلمات مغازلة مخادعة، لأحتال على قلبك، كانت تكفي كي أذيبك، و أجعلك طوع أمري، لأتبوّأ مقعد السّيادة عليك، ولأكون إلهك الصّغير، معبودك على الأرض، ألثم رحيقك وأمتصّه حتّى النّفاد، أجول و أصول في مرابع جسدك البضّ الغضّ دون ما تحفّظ يُذكر. »

«أجل ! كلّ هذا كان يمكن أن يقع، إن عاجلا أم آجلا، ثمّ أنفض يدي منك، وأدعك جثّة لا يفترسها أحد، ملقاة على ناصية طريق، لا يرتاده عابر تقريبا، عدَا المعتوهين و المخبولين. »

«ألو ! ألو ! ألو ! ألو ! »

« .....-»

و عبثا ظللت تردّد على مسمعها كلماتك تلك، و عبثا أيضا كنت تفضي إليها ببوحك، الذي دكّ أسوار أعصابها عن الآخر، فالمكالمة كانت قدِ انْقطعت تماما.

16

كان الاحمرار قد ضرّج وجهها، بدت مضطربة بعض الشّيء، حين التقت بك كما اتّفقت معك، قبالة مدخل «المكتبة الوطنيّة» القابعة أسفل فندق «الأوراسي» الشّهير، الذي يقف من علٍ كالطّود الأشمّ العتيد، بحيث يمكن للرّائي أن يبصره بوضوح، عند دخوله إلى العاصمة جهة الشّرق، في الطّريق السّيار بمحاذاة البحر.

«صباح الخير !»

حيّتك باقتضاب شديد، دون أن تمدّ إليك يدا مصافحة هذه المرّة، على غير المعتاد.

«صباح الخير !»

و بدورك رددت التّحيّة في ما يشبه البرود، و كأنّ العلاقة مازالت تشهد لحظات توتّرها القصوى، فالحاجز النّفسي ما يزال قائما بينكما، إثر تلك الواقعة الكابوسيّة، و عواطفكما ما تزال مثلجة، كان عليكما أن تبعثا فيها شيئا من الدّفء غير قليل، و لكنّ برودكما بدَا جبلا من جليد، يحتاج إلى وقت أكبر و صبر أكثر لإذابته كلّية على مهل.

ظللتما وقوفا مسمّرين في مكانكما، سادكما صمت مطبق للحظات قصار، حين خاطبتك قائلة في محاولة لاستجدائك :

«ما رأيك في أن نحتجز مكانا لنا، في قاعة المطالعة قبل أن تمتلئ عن الآخر ؟»

هززت رأسك و قد بان على ملامحك بعض الأسى، قبل أن تستفهم مستنكرا :

«هل جئنا طلبا للمطالعة أم لأمر آخر أكثر أهمّية ؟!»

لم تجد ما تقول، لذا لم تعلّق على قولك بشيء، اكتفت بترقّب الوضع في صمت و حذر و تحفّظ، و كأنّ الكلمات، كلّ الكلمات، انتحرت على مقصلة شفتيها، ظلّت صامتة تنتظر بنفاد صبر، ما سيسفر عنه الموقف الذي غدَا أقلّ حرجا و تعقيدا ممّا كان عليه، حين اتّصلت بك البارحة، فقد كانت مشادّاتكما الكلاميّة على أشدّها يوم أمس، لاحت كما لو أنّها معركة حامية الوطيس، أوشكت أن تضع حدّا لمولود، لم ير النّور إلاّ منذ بضعة شهور.

«مكاننا هناك»

قلت هذا وأنت تمسكها من يدها، في شيء من القسوة و التّعنيف، فصاحت في وجهك :

«إيه ! مهلا ! لقد أوجعتني»

ثمّ أردفت قائلا غير مبالٍ باعتراضها ذاك :

«تعالي..!»

أذعنت للأمر دون ما أدنى احتجاج، بحيث سرتما جنبا لجنب، وأنتما تعبران الطّريق بحذر، حيث كانت العربات تمرق بسرعة جنونيّة، نحو الجهة المقابلة للمكتبة.

أخيرا وقفتما عند الحاجز الإسمنتيّ، في مواجهة الزّرقة، ترنوَان إلى البحر، وقد تسرّبت إليكما نسائمه المنعشة، المحمّلة بالرّطوبة.

نظرت إليها نظرة تَشِي بنوع من الرّيبة :

« حياة ! »

باغتها صوتك الذي جاءها خافتا، منكسرا، حزينا، لتستيقظ من شرودها، ولكنّها لم تتفوّه بشيء، كأنّما بقايا الإغفاءة ظلّت عالقة بجفنيها، في حين واصلت تقول، في محاولة لسبر أغوارها :

« هل لي مكان في قلبك !؟ »

تفاجأت بهذا البوح، ربّما، كانت تنتظره قبل اليوم، و قد أفرحها كثيرا أن تسمع منك هذه الكلمات، التي غاصت في قاع أعماقها.

أغمضت عينيها برهة من الزّمن، ثمّ تنهّدت قائلة :

« أنت تعلم جيّدا منزلتك عندي، أعزّ صديق عرفت حتّى الآن هو أنت بالطّبع.. ! »

عاودت استفهامك إجلاءً للمعنى الخفيّ :

« هل أنت واثقة ممّا تقولين !؟ »

و بحرج غير منتظر ردّت بكلمات متثاقلة :

« ترى.. هل يحتاج الأمر.. إلى إثبات حالة و تبرير موقف، ما قلته آنفا هو دليلي القاطع و برهاني السّاطع ؟! »

« أصدقيني القول... »

قاطعتك كمن يحاول مجتهدا حلّ معضلة :

«أنا جادّة في مواطن كهذه، و لا يمكن أن أكون نقيض ذلك.»

عدت تقول كمن يضع المبضع على الجرح، بعد عمليّة فحص و جسّ للنّبض :

«هل الصّداقة كلّ ما ترومين !؟»

«ماذا تعني بالضّبط ؟!»

و بوضوح من يضع النّقاط على حروف ظلّت عارية منها، بمعان مجرّدة تماما من أيّ مبنى كان، و بأفكار بدت أكثر من سرياليّة :

«أعني هل هي أقصى طموحك في علاقتك بي !؟»

حاولت بمهارتها المعهودة، أن تغيّر مجرى النّهر مترجّية، فقد خشيت على نفسها من أن يداهمها سيله الجارف الذي شرع في التّكاثف و الاصطخاب :

«رجاء ! لا تفسد علينا هذا الجوّ، الرّائق المشهد بخناق آخر تافه، قد لا نجني منه غير الخواء!»

بيد أنّك وقفت لها بالمرصاد ممانعا، صادّا، آبيًا تحويل مجراه، أصررت أن تبقي على صلب الموضوع، دون ما أيّ تنقيح أو تعديل للطّبعة الأصليّة، إلى حين تنجلي كلّ الغيوم من سمائك، كي يعمّ الصّفاءُ أجواءَها الملبّدة بغشاوة الظّنون و الوساوس، و يعود الإشراق النّيّر الباهر الجمال إلى ما كان عليه مجدّدا، و في انتظار ذلك كان لابدّ من إجراء عمليّة تجميل، للوجه الذّميم الذي كان على مرمى حجر من المسخ.

«لابدّ من تذليل عقبات الخلاف الحاصل بيننا، و الذي طرأ على علاقتنا مؤخّرا، و التي أعتقد أنّ بعضا من الوهن قد أصاب صلابتها في العمق !»

لم تنبس ببنت شفة، في حين تابعت كلامك :

«لا أظنّ أنّك لم تفهمي قصدي.»

كان البوح من الوضوح، بحيث لم يعد بحاجة إلى مزيد من الشّرح و التّحليل و التّفسير و التّعليل جميعا، و مع ذلك كان عليك أن تواصل إطنابك :

«لكِ وحدك أدع قرار الموافقة من عدمها، لك مطلق الحرّية في ذلك»

هنا فقط انبرت تقول، بعد لحظة صمت عابرة :

«ألا ترى معي أنَّ امْرا كهذا لا يزال بعيدا، ليس هذا أوانه الآن !؟»

سكتت لحظة ثمّ واصلت مستفيضة في القول :

«علاقتنا لم يمضِ عليها وقت طويل...»

ظللت صامتا و أَنت ترنو إليها بعينين، لاحتا منكسرتين على وجهك، مثل بقايا زجاج متشظٍّ صار نِثَارًا على الأرض الصّلدة، و هي توالي استطرادها، على غير العادة، كلّما تعلّق الأمر بهذا الشّأن..

«الطّريق لا يزال أمامنا طويلا، و نحن بعد لسنا إلاّ في أولى خطواتنا»

و كمن يوشك صبره على النّفاد، قمت بمداخلة ارتجيت من ورائها، المرافعة من أجل قضيّة حاسمة، لا محيد من الفصل

فيها، و أردتها أن تنتهي لصالحك، بما بهض من تكاليف أو بخس، فهل ستكسبها في النّهاية، نهاية الأمور بخواتمها :

«مسألة الوقت لا تهمّني : سنة، سنتان، ثلاث سنوات، و حتّى أربع... لا يهمّ، كلّ ذلك ليس بالمهمّ، سأنتظر العمر كلّه من أجلك، إن اقتضى الأمر... كلّ هذه السّنوات هي فرصة سانحة لي، كي أعدّ عدّتي جيّدا، سأظلّ في انتظارك مهما طال الزّمن، ما يهمّني الآن هو نواياك، صدق مشاعرك نحوي، هذا هو الثّابت في المعادلة، أمّا ما دونه فمتغيّرات يمكن استدراكها في أيّ وقت شئنا، لأنّها غير مستعجلة الاستعجال الذي يستدعي التّأهّب لاستدراك ما فات.»

توقّفت عن المرافعة، و أنبت الصّمت بديلا لمرافعة أخرى، دون حروف و لا نقاط، و لا فواصل، و لا حتّى علامات استفهام أو تعجّب.

تخريجتك هذه كانت أكثر من مفاجئة، لذا استعاضت هي الأخرى ببديل هو هذا الصّمت المطبق، فكان الصّاع بصاع آخر مماثل له حجما و شكلا و لونا.

في غضون ذلك فكّرت، مستغلاّ فرصة امتناع كلّ منكما عن الكلام : «هل هو مجرّد إعجاب ظرفيّ، سرعان ما يزول كالفقاقيع التي تطفو على السّطح، بزوال دواعيه المغذّية له، أم تراه انجذاب عفويّ آنٍ، يحتكم إلى راهن لا يستشرف المستقبل، و لا يتطلّع إلى الغد، سيتوارى تدريجيّا و يتلاشى عمّا قريب، مثلما يتوارى قرص الشّمس المتوهّج حمرة، ساعة الغسق معلنا عن رحيل نهار، سيعقبه ليل بكلّ تأكيد..»

لم تتصرّف حتّى الآن، كمن يريد الرّفض أو القبول ضمنيّا، لم تقل لا و لم تقل نعم في الآن ذاته، ظلّت بين بين، وسطا بين نعيم و جحيم، متأرجحة بين كفّتين متوازنتين، يتجاذبها المدّ و الجزر.

«حياة !»

تجاهلت إشارتك فهززت كتفيك شبه حانق، و عندما لاحظت عليك تذمّرك بعض الشّيء، ردّت قائلة :

«نعم..»

« أسمعيني جيّدا..»

«أنا كلّي إصغاء.. !»

زفرت نفسا طويلا، ثمّ قلت في ما يشبه التّوسّل :

«أحتاج إليك.. كثيرا.. أتسمعين !»

ابتسمت في خفر مبطن، غير أنّها تمنّت، في قرارة نفسها، لو أنّ وجهها أشرق لكلماتك هذه، إشراق الشّمس وقت الشّفق، أو أضاء لها ضياء القمر في ليلة، صافية سماؤها، متلألئة نجومها.

أحسّت بنشوة الفرح، أفعمت قلبها طربا، و أسبغت على روحها مرحا، و منحت نفسها حبورا ضاعف من زهوها المُعتَدِّ به.

لم تتصوّر أنّك ستلين معها كلّ هذا اللّين المثير، و تتلطّف معها كلّ هذا التّلطّف المدهش، بعدما أبديته من خشونة و قسوة في وقت سابق، لمجرّد وقفة مع زميل لها بالمعهد، أو بسبب موقف لا يحتاج إلى كلّ ذلك التّهويل، وهب أنّها قد أخطأت، فالمسلّم به أنّه ليس أكثر من خطإ هيّن، بمثقال ذرّة،

ثمّ لا شيء كان يربطها بك رسميّا إلى الآن، فما الدّاعي إذن لأن ترغي و تزبد، تثور و تهيج، تقيم الدّنيا و لا تقعدها..؟!

تناهى إليها صوتك عذبا، وديعا، رقيقا، حمل إليها الدّفء، أذابتها نبراته فتراخى كلّ ما كان منقبضا، متشنّجا فيها، و ها هي ذي الرّوح تؤوب إليها مرحة، منشرحة و منطلقة، في فتوّة و نضارة و بهاء كسابق عهدها.

فكّرتْ: «هل عاد للفتى صوابه بعد أن طاش!؟ هل آب إليه عقله بعد خَبَلٍ كان قد أصابه في الصّميم!؟ و هل ستدوم لحظات الانفراج هذه، أطول مدّة زمنيّة ممكنة، بعد انسداد كاد أن يودي بمصير علاقتنا، أم أنّها مجرّد سحابة صيف عابرة!؟»

هذا الاعتراف بالحبّ و لو تلميحا، و الذي ربّما، كانت تنتظره من قبل، بنفاد صبر، و هي تتقلّى شوقا، و تضع يدها على قلبها، لسماعه منك، تساقط عليها غيثا، نزل عليها بردا و سلاما، أحسّت به و أنت تصبّ كلماته تلك في أذنيها صبّا، كالحلم السّادر نحو منتهاه، فكان القلب مستقرّه و قراره المكين.

تاهت مبهورة النّظرات، محمومة الأنفاس، راكضة خلف حلم، غزل خيوطه الفسيفسائيّة قلب رقيق، حسّاس، و رسم لوحاته الباهرة الجمال، الرّائعة الألوان، قلب مشتعل الوجد، صريع الهوى، مغدق العطاء، لم تقف على رهافتة و فيضه مثل اللّحظة...

ثمّ لم تفِقْ إلاّ و هي تردّد، و كأنّ الحلم قد امتزج بالواقع حدّ التّحلّل و التّوحّد، و كأنّ الخيال قد عانق الحقيقة حتّى الذّوبان و التّلاشي...

«و أنا الأخرى، لست أقلّ حاجة إليك، جمال.. !»

كادت تذيعها لك على المباشر، أوشكت أن تقذف بها إلى مرمى قلبك، بيد أنّ لسانها خذلها بعد أن تلعثم و تدحرجت ألفاظه، خانتها الكلمات بعدما الْتَوَتْ، ممّا جعلها تتلكّأ و تتردّد في الأخير، فكان أن استعاضت عن كلمة «حبيبي» باسمك مجرّدًا من كلّ نعت يليه رأسا، المؤكّد أنّها ستتجاوز مخالفتها هذه تلقائيّا، باستدراك آخر سيمنح لعلاقتها بك نفسا آخر، أكثر تجدّدا، نقاوة، صفاء، بهاء، و نضارة..

لا بأس !

ستحتفظ بها لنفسها، ستخبّئها في قلبها، وتغلق عليها بجفنيها، ولـمّا يحين موعد البوح، ستفضي بها إليك، أمّا الآن فما عليها إلاّ أن تنتظر و تصبر، في انتظار ما سيطرأ من مسرّ المفاجآت لاحقا..

عند هذه التّخوم ينتهي دورها، أمّا أنت فيبدأ من حيث ينتهى دورها هي، و ها قد حان اللّحظة، و جدّ وقت الحسم :

«فلنتعاهد على الحبّ رغيفا، نقتاته على مائدة واحدة، و تحت سقف واحد، حلما تجمعنا نشوته و شهوته، في مخدع مشترك، ظلاّ يلازمنا في الحلّ و التّرحال، نفسا يتقاسمه تأوّهنا الحارق المشترك، و لهاثنا المثقل بالشّوق، رفيقا للدّرب يجمع خطواتنا على مدى الحياة..»

«لك ذلك..»

وكان عليها، في ذات اللّحظة التي حانت، أن تستدرك استدراكها المؤجّل، كيف لا و قد جدّ أوان الفصل :

«جمال ! أنا لك طيّبك، حلالا !»

17

في غياب الصّورة ليس أقلّ من الصّوت..

آ.. كيف فاتني إدراك هذا الأمر، و هو ممكن، في متناول اليد !؟ يا لَغبائي !

أتذكّر رقم هاتف البيت الذي كنت قد دوّنت في كنّش شخصيّ، أوّل الأمر، أجل، ما زلت أحتفظ به في إحدى الصّفحات، قبل أن أستعيض عنه، مؤخّرا باتّصالاتي المباشرة معها وجها لوجه.

أنسلّ من قاعة الشّاي بـ «الكتّاني» الواقعة عند مدخل حيّ «باب الوادي» الخلفيّ على واجهة البحر، في خفّة أرنب موعود بغنيمة ما، على غير مبعدة من شاطئ «الرّميلة».

بصعوبة بالغة انتزعت جسدي من مكانه، أحسسته مثلجا بعد طول جلوس، أغادر المكان فورا، أستحثّ الخطى كمَن هو على موعد هامّ، لا يقبل التّأخير أو التّأجيل، انصرفت في عجالة مَن يحاذر شيئا يتوجّس منه خيفة، بعد أن نقدت النّادل ثمن المشروب، مرفوقا ببقشيش ثمنًا للمكوث و بعض الخدمات الإضافيّة الطّفيفة.

ألجأ على عجل إلى أوّل هاتف عموميّ يتراءى لي في آخر الشّارع، أخيرا بعد دقائق من السّير أدركه، كنت كمن يلوذ بملجإ آمن، و أنا على مقربة منه بخطوات معدودات.

ما أن ولجته حتّى ألفته غاصّا بالزّبائن، يا للصّدفة الغريبة !

هل كان عليّ أن أنتظر مرّة أخرى، كما سبق لي و أن أمضيت ساعات في انتظار قدومها ؟ هل كان عليّ أن أدفع ضريبة الانتظار عدّا و نقدا، على هذا النّحو المقرف للغاية ؟

تردّدت برهة من الزّمن، و أنا أتساءل في قرارة نفسي، على أيّهما سيقع الاختيار: المكوث إلى حين يجيء دوري، أم الانصراف غير مأسوف على شيء، والعودة طواعية إلى رحلة البحث عن هاتف عمومي آخر، في مكان ما قصيّ، و ربّما، و هذا الذي كان يشغلني حقّا، قد لا أجده أحسن حال من الأوّل و لا أفضل منه.

أسندت ظهري إلى الحائط الجانبي لمدخل المحلّ، أنتظر على مضض دوري أنا الآخر وسط هذا الحشد من المنتظرين، انتظار الدّور، هذا ما قرّ عليه عزمي أخيرا.

بعد لحظات خِلت أنّها طالت أكثر من اللازم، أجدني وجها لوجه مع سمّاعة الهاتف بقلب مشوق محروق، أرفعها بيد دبّ فيها بعض الارتجاف، إنّه الشّوق الملتاع الذي تحوّل، بعد طول انتظار لم يفض بعد إلى نتيجة ملموسة، إلى اشتياق حارق التاع له قلبي..

أرفعها بسرعة البرق، و بحركات متشنّجة أُدِيرُ الأرقام المطلوبة، أو هكذا تراءى لي، أميل على السّماعة، كمن يودّ

أن يحتضن حبيبا له، اشتاق العمر كلّه إلى لقياه، بعد فترة هجر و صدود و جفاء طال أمدها، ليذيب كلّ ما تشحّم من أشواق، و ما تجمّد من مواجد، و ما تكلّس من أحاسيس..

يتناهى إليّ رنين الهاتف :

-طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ،.....

بغتة يعانق سمعي صوت أنثويّ رخيم، يذيع عليّ ما يلي

- Le numéro que vous avez composé ne peut t'aboutir, veuillez réessayer ultérieurement, merci !

أكابد لوعة الانتظار لحظات، و لا شيء يملأ سمعي، أقطع الخطّ ثمّ سرعان ما أعاود إدارة نفس الأرقام، على أمل الاتّصال بها..

- طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ،.....

يجيئني ذات الصّوت معلنا ما يلي :

- لا يمكنكم إجراء هذه المكالمة حاليا، يُرجَى إعادة المحاولة بعد حين.. شكرا !

باءت المحاولة بفشل ذريع، كان عليّ أن أجرّب ثالثة، لعلّها تؤتي أكلها، عساها تأتي بالرّبح الوفير :

- طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ،.....

يعاودني صوتها للمرّة الثّالثة على التّوالي :

- إنّ الرّقم الذي طلبتموه مشغول مؤقّتا، يُرجَى إعادة المحاولة بعد حين.. شكرا !

المحاولة هذه لم تكن أحسن و لا أفضل من مثيلتيْها الآنفتين..

أيّ نَكَدٍ حظٍّ هذا ؟!

لا علينا، سأعيد الكرّة، فلا خيار من تكرار المحاولة، و إن هي سوى لحظات حتّى يرنَّ الهاتف ذات الرّنين المعهود بمللهِ حتّى القرف :

- طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ،.....

تمرّ لحظات غير قصيرة، ثمّ يجيئني متأخّرا صوت أنثويّ، في غاية الرّقّة و العذوبة، لم يكن إلاّ صوت المذيعة، فليته كان لها هي :

- إنّ الرّقم الذي طلبتموه خاطئ، يُرجى الاسترشاد بالدّليل، أو الاتصّال بمصلحة الاستعلامات رقم تسعة عشر.. شكرا !

و يتوالى نفس الإعلان بكلمات فرنسيّة هذه المرّة، بعد فاصل موسيقيّ رديء ممجوج الذّوق :

- Le numéro que vous avez composer est erroné, veuillez consulté l'annuaire ou appelez le service des renseignements , merçi !

فجأة تنتابني الدّهشة، هل وقعت خطأ في خطّ هاتفيّ آخرَ، أنا غير معنٍ به..!؟

أتفادى الاتّصال بمصلحة الاستعلامات، كما دلّتني على ذلك المرشدة، حفاظا على الوقت، فمن يدري، قد لا يجديني نفعا، إن أنا اتّصلت بها، كان عليّ أن أتدبّر الأمر بنفسي، ثمّ ما أدراني إن كان خطّ هاتفها المنزلي مسجّلاً لدى مصلحة البريد أم لا.. ؟!

أعدت المحاولة بصيغة جديدة، محتفظا بنفس الأرقام، ثمّ

بعد ثوانٍ معدودات، يرنّ الهاتف :

- طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ،.....

عادت حليمة إلى عادتها القديمة، كما يقولون، نفس الصّوت يأتيني للمرّة الخامسة على التّوالي، مذيعة عليّ نفس الإعلان السّابق و بنفس الكلمات :

- إنّ الرّقمَ الذي طلبتموه خاطئ، يُرجى الاسترشاد بالدّليل أو الاتّصال بمصلحة الاستعلامات رقم تسعة عشر،.....

كان لديّ انطباع بأنّ متاهة ما، في انتظاري هنا أو هناك، مع هذا الرّقم أو ذاك، أرجو، فقط، الخروج منها بالسّلامة..

هل أدرت الأرقام الأصليّة بترتيب آخر مغاير للتّرتيب الصّحيح المراد، الاحتمال وارد تماما، غير مستبعد بالمرّة..؟

لا علينا، سأتبنّى، هذه المرّة، ترتيبا آخرَ علّي أصل إلى التّرتيب الأصليّ الذي أنشده في توق شديد..

يترامى إلى أذني صوت السّمّاعة بطريقته المألوفة، بعد ثوانٍ فقط :

- طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ،.....

يأتيني صوت المذيعة يقول :

-إنّ خطّ مراسلكم معطّل مؤقّتا، الرّجاء إعادة المحاولة بعد قليل، شكرا !

و نفس الشّيء كما وقع في السّابق : أوّلا و ثانيا و ثالثا و رابعا و خامسا، بعد فاصل موسيقيّ نشاز، يأتي صوت آخر، يذيع الكلمات نفسها، و لكن بلغة «فولتير» دائما و أبدا :

-La ligne de votre correspondant, est momentanément en

dérangement , veuillez réessayer dans quelques instant, merci !

لعلّ الخطأ يكمن في ترتيب الرّقم الأصلي، ما زال احتمالا واردا، تصديقه أكبر من تكذيبه، لا علينا، سأعاود المحاولة للمرّة السّابعة :

كدت ألقي بها من يدي، بكل القسوة التي أختزن، مفرغا فيها كلّ حنقي، غير أنّي عدت أوالي حظّي التّعس للمرّة السّابعة.. :

طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ،.....

نفس الصّوت النّشاز، صوت المذيعة سيجيئني لاحقا، بعد قليل فقط من الآن..

نعتذر عن عدم تلبيّة هذا الطّلب لأنّ الرّقم المطلوب لم يعد في الخدمة،.....

- Le numéro que vous avez demandez n'est plus en service , merci !

هل وقعت في الخطأ مرّة أخرى !؟ ماذا يحدث معي اليوم !؟ ما كلّ هذه الألغاز ؟! لم أعد أفقه شيئا..!

ألا ترى معي أنّ اللّعبة قد صارت فعلا مسلّية للغاية، و لكن.. بأيّ ثمن، لا علينا سأكرّر المحاولة على الفور، و للمرّة الثّامنة رغم أنفي :

طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ،.....

– إنّ الاتّصال بالرّقم الذي طلبتموه، غير ممكن حاليا، يُرجى إعادة المحاولة بعد حين، شكرا.....

و يعاد إذاعة نفس الإعلان بترجمة، دقيقة، دائما بلغة فولتير طبعا :

- -Le numéro que vous avez composez ne peut aboutir veuillez réessayez ultérieurement , merci !

من الواضح أنّه لم يكن ثمّة خيار، كان لابدّ من الإذعان لرجاء المذيعة، أعاود المحاولة بشيء من الإصرار و العناد و التّحدّي جميعا :

– طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ،.....

يا لَلْعجبِ !

حتّى المحاولة الثّامنة مُنِيَتْ بهزيمة نكراء، أيّ سوء طالع هذا !؟

أنزل السّماعة و اضعا إيّاها على الجهاز، بعد لحظة وجيزة أرفعها إليّ، ثمّ أدير نفس الأرقام المطلوبة، في محاولة أخرى، قد تؤتي أكلها هذه المرّة، هكذا كنت أفعل في كلّ مرّة، عند إعادة المحاولة تلوَ الأخرى..

– طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ،.....

يرنّ الهاتف دون جدوى، و بعد قليل يعاودني ذات الصّوت الأنثويّ المسجَّل قائلا :

– لا يمكنكم إجراء هذه المكالمة حاليا، يرجى إعادة المحاولة بعد حين، شكرا !

أحاول كرّة أخرى، رغم كلّ شيء، نزولا عند رغبة المذيعة :

– طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ، طَنْ،.....

بعد لحظات يتناهى إلى سمعي، موجز من إيقاع موسيقيّ سريع، يعقبه الصّوت المسجّل كالعادة :

– لا يتمّ الرّدّ على الرّقم الذي طلبتموه، يرجى إعادة المحاولة

بعد حين، شكرا !.....

.....

كم كان يجب عليّ أن أحاول من المرّات، ألا يفي بالحاجة هذا القدر من المحاولات، و إلاّ ما معنى أن أظلّ معيدا و مكرّرا، دون جدوى تُذكر، و إلى متى سأظلّ أحاول المحاولة بعد الأخرى...؟!

18

يكاد يغمى عليّ، أكاد أهوى أرضا لولا بقيّة من تماسك، أستقيم في وقفتي تلك، في محاولة لاستجماع القوى المعرّضة للانهيار في أيّة لحظة، المحاولة تبوء بفشل ذريع..

أحسّ بالدّوار، بالصّداع و بالغثيان، ألقي بالسّماعة من يدي، في انفعال من يتخلّص من كابوس داهمه في لحظة صحو..

أهرع في حالة ذعر إلى أقرب صيدليّة، أقتني علبة (الدّوليبران 500غ) من منتوج فرنسيّ، و في الحين أتناول قرصين دفعة واحدة، بعد أن طلبت من الصّيدلي أن يناولني كأس ماء، ثمّ أنصرف لا أدري لي وجهة أنا مولّيها..

عند حافّة الباب أقف برهة من الزّمن، كمن يستردّ أنفاسه و يسترجع قواه المهدورة، بعد سباق ماراطوني، كمن يوقّع هدنة مع عدوّ أرهقه نزاله و مقارعته..

أوزّع نظراتي الزّجاجيّة على المارّة، وهم يكرّرون حالة الصّعود والهبوط، ويباشرون واقعهم المعيش بِنُسَخٍ طبق الأصل، يمارسون طقوس الذّهاب والإيّاب بغريزة فجّة، يروحون ويغدون بسحنات مكفهرّة، ينامون ويستيقظون، يأكلون و يتناسلون،

هذا كلّ الذي يفعلون، دون أن يتساءلوا يوما عن جدوى مساعيهم تلك..

«كيف سيكون الحلّ ؟ و أين هو المخرج من كلّ هذا المأزق المريع ؟ و إلى ما سيؤول إليه هذا الوضع الحرج الكريه الذي ازداد تعقيدا..؟ و هل من مخرج لي من هذه المتاهة التي وجدتني فيها مكرها ؟»

قلت هذا في قرارة نفسي لاهث الأنفاس، بصوت عالي الرّنين، مبديا أسفي على نفاد صبري، من غير ما حرج، على ما يحدث لي الآن، مظهرا تذمّري و تبرّمي من المنزلق الذي وجدتني أتخبّط فيه، دون بارقة أمل في التّخلّص منه تقريبا، تلوح في الأفق..

الوقت لم يعد له معنًى، تجرّد من هالة قدسيّته، يركل بعضه بعضا، مثل جلد منفوخ تتراكله أقدام اللاّعبين، في ميدان لكرة القدم..

أرنو إلى هؤلاء التّعساء البؤساء، المهرولين في كلّ الاتّجاهات بلا معنًى : نزولا و صعودا، و صعودا و نزولا، من أجل اللاّشيء تقريبا..

أعضّ على شاربي الصّغير في تحسّر و تأسّف، وعيناي السّوداوان تلمعان و تدوران في محجريهما باكتئاب موجع..

في أوّل الأمر، لم أجرؤ على رفع صوتي، حاولت ذلك و لكنّي ألفته كما لو كان مخنوقا، كنت صامتا في جبن و نذالة و خسّة، و طال صمتي ممّا زاد في عذابي و بؤسي، و فجأة، دون شعور منّي، أضغط على جسمي و أُخرج من

شفتي شهقة كالتّنهّد ظلّت حبيسة، و لا أبالي بجموع المارّة الذين ازدحم بهم طول نهج «العقيد لطفي» في حيّ «باب الوادي» الشّعبيّ..

لا أرى لي إلاّ أشباحا تروح و تجيء، أجساما تشغل حيّزا، تتحرّك تحرّكها المعتاد طورا، و تتوقّف توقّفها المألوف طورا آخر، كلّ هذا يحدث تحت ناظري الكليلين..

لم أكن أودّ الإحساس بالزّمن، عملت كلّ ما في وسعي، و بذلت جلّ الجهد، كي لا أستحضر دقّاته المتواليات، حتّى لا أقع تحت وطأته، كان يكفي أن يتقدّم بي الوقت و لا أبالي به، و لا أسأل عنه، إلى أن أيقظني أحد المارّة من شرودي، و اجتثّني من لامبالاتي، لست أدري من أين طلع لي المخلوق، لأفاجأ بسؤاله الأخرق هذا :

(- شحال السّاعة عزيزي ؟)

أحسست كما لو أنّ صفعة حارقة، تنزل على خدّي، أنظر إليه شزرا، و بمرارة من يتخلّص من شيء تعافه النّفس أجيبه :

(- ما تمشيش، راهي حابسه !)

انصرف عنّي غير مأسوف عليه..

كان عليّ أن أنزع ساعة اليد هذه، أطرحها أرضا ثمّ أدوس عليها بقدمي فتتهشّم، و لكنّي لم أفعل، رأيت في ذلك حماقة، ما من ضرورة تستند عليها، صرفت النّظر عن الفكرة التّافهة التي عنّت لي، و لمْ أُولِ الأمر كبيرَ اهتمام، كلّ الذي قمت به، هو أنّني أدرت ساعة معصمي إلى أسفل، حتّى لا تبرز للواجهة، إخفاؤها بهذه الطّريقة

الذّكيّة، كان هو الحلّ الأنسب، للتّملّص من بعض السّائلين الفضوليّين..

هذا الوطن شاحب الوجه، قاتم القسمات، مكفهرّ السّحنة، سماؤه حبلى بغيوم لا تمطر، النّوافذ كلّ النّوافذ فيه انغلقت، كان يمكن أن تشرق منها شمس صبوح، دافئة، حييّة، و حانية، و شرفاته أبدا لا تطلّ على الخضرة و الماء، لا تعانق الزّرقة و الهواء..

أنتِ مثله الآن تماما يا حياة !

اللّحظة أمنّي نفسي بسفح قصيّ، يموج بخضرته في رونق و بهاء، أرنو ببصري إليه في غير ما كلل أو ملل، لست أدري كيف اكتسحتني هذه الرّغبة المشتهاة، الفريدة من نوعها، الخارجة عن نطاق الزّمن، وسط كلّ هذا الضّجيج و العجيج الذي لا معنى له، و لا جدوى منه، الذي لا ينقطع هديره و لا يتوقّف سيله المنهمر و لا ينتهي صخبه حتّى آخر ساعة من اللّيل..

أفكّر و لكنّني لا أقول شيئا في الختام، و حين أقول بوحي، فبصوت خفيض يشبه الهمس...

حياة !

ياسمينتي الخضراء،

تطلق ألف ابتسامة و ابتسامة بيضاء،

تزهر بالنّجوم في السّماء..

تعلو الياسمينة،

تعرّش على جدار شرفتي الحمراء..

أنا لك التّربة، الماء، الهواء، و الضّياء،
وأنت لي شذًى فوّاحٌ، يعبّق الأجواء..
فلولاك و لولاي،
ما كنّا لنكون على السّواء،
فعلام الغياب و الهجر و الجفاء !؟
يا أمنيّة الأماني !
أنا عصفورك الذي لا يهوى الغناء
إلاّ في دوحتك الغنّاء،
و أنت سماؤه الزّرقاء،
المشرقة، الدّائمة الصّفاء..
حياة !
يا حياتي !
يا حسنا يمشي على الأرض !
يا آية البهاء !
يا سيّدة النّساء !
يا غصن زيتوني الموعود بالعطاء !
يا حمامتي البيضاء !
و يا سنبلتي الخضراء !
أنت نافذتي المشرّعة على الشّمس و الهواء،
و شرفتي المطلّة على الخضرة و الماء،
فلِم لا تأتين !؟
و هذي أكمام الوجد،
تتفتّق كالزّنبقة ناثرة عبيرها العبق،

و هذا تغريدي الجميل، الحنون يهفو إليك،
يغنّيك مواويل الصّبابة و الجوى،
و هذا قاربي الصّغير الولهان،
يشدّه الحنين إلى اللّقاء،
مأخوذا أبدا بالموج الأزرق و زبده الأبيض،
يجذّف صوب الشّاطئ،
ليرسو على مرفإ عينيك،
فهل تأتين !؟
هل تأتين !؟

19

معظلة أخرى ظلّت في مواجهتي، بتحدٍّ سافرٍ متبجّحٍ، لم أعد أذكر رقم الهاتف الصّحيح، كما يجب أن يكونَ عليه، منذ مدّة لم أتّصل بها هاتفيّا، اقتصر الاتّصال على اللّقاء بها وجها لوجه، حتى أنّ الكنّش الذي كان من المفروض أن أستنجد به ضاع منّي، متى حدث ذلك و أين ؟ لا أدري الذّاكرة تخونني في كلّ مرّة، عندما أشغل أرقام خطّ هاتفها، رغم يقيني أنّ الأرقام هي ذاتها، و لكن يبدو أنّها قد اختلطت عليّ، و تشاكل عليّ أمرُ أوّلها من آخرها، و أوّلها من وسطها، و وسطها من آخرها، و آخرها من أوّلها..

بعد مشكلة غيابها صورة و صوتا، ها أنذا أواجه مشكلة أخرى أعوص بكثير..

كنت أعوّل على الصّوت تعويضا عن الصّورة و الصّوت معًا، و لكنّ الظّاهر أنّ الصّوت استحال هو الآخر إلى أمنيّة صعبة المنال، و إلى حلم لا يُدرَك إلاّ اضطجاعا و إغفاءً على سرير النّوم..

بعد أن تعذّر حضورها، كان عليّ أن أقنع بالصّوت فقط، و لكنّه هو الآخر لا يأتي، يأبى بدوره إلاّ أن يسجّل غيابه..

اليوم هو يوم الغيابات بالجملة..

ماذا يحدث بالضّبط ؟! لا أكاد أفهم شيئا !

اليوم بدأ عاديا، واعدا بشتّى المسرّات و المباهج، كلّ شيء كان على أحسن ما يرام..

منذ أن استيقظت هذا الصّباح، باشّ الوجه، منشرح الصّدر، خالي البال، كنت أشعر بموجة من الغبطة تغمرني من الدّاخل، بل كنت أسعد ما أكون، لعلمي أنّني على موعد مع حبيبة القلب و قرّة العين..

في الشّارع كنت أمشي و الابتسامة لا تكاد تفارق وجهي، أدندن بصوت خافت مرحا لفرط الحبور، و أنا ألقي على الرّصيف خطى مفعمة بالزّهو، وكأنّ الدّنيا، كلّ الدّنيا، ملك متاح لي مشاع دون سواي، وكأنّ العالم، كلّ العالم بين يدي، أدير دفّته كأيّ ملك يجلس في بلاط العرش مكابرا..

كنت أبصر قدّامي آفاقا ورديّة، حالمة، تمتدّ فسيحة أمامي على الرّحب و السّعة، تبحر الرّوح نحوها، فيتجدّد الشّوق و يعبق الأمل بأريجه الفوّاح..

بعد حوالي مسيرة نصف السّاعة، وصلت إلى المكان الذي اعتدنا الالتقاء فيه، كالعادة قبل الموعد بقليل، جلست إلى الطّاولة التي ألفنا الجلوس إليها معًا، ككلّ مرّة عندما يجمعنا لقاء ما..

حين نلتقي، بعد لقاءات جمّة سابقة، كنت أبادرها دائما بالقول :

« – أُسعدتِ صباحا يا بدر البدور ! »

تتضاحك للدّلال بصوت يرنّ بداخلي، بكلّ العذوبة و الرّقّة..

« – و صباحك أسعد يا فارس أحلامي الباسل المغوار ! »

« – يوم جميل ! أليس كذلك !؟ »

و برقّة حنون تسترسل معي في الحديث :

« – ككلّ أيّام لقاءاتنا يا بهجة الرّوح و يا نشوة الجسد ! »

تتوقّف برهة من الزّمن، مبرقةً بذاك الفاكس المشعّ، الحييّ، الذي يسري دفؤه في كلّ حنايا جسمي، لتستدرك أمرا فاتها :

« – و الأجمل من كلّ هذا، أن أنعم بقربك دائما.. »

« – سعيد بلقائك دائما.. »

« – و أنا أسعد ! »

« – كلّما تجدّد اللّقاء بيننا، كلّما ازدادت وردة حبّنا نضارة و بهاء و شذًى.. »

« – أيّامنا ربيع لا يذبله خريف يا عزيزي ! »

« – ربيع كلّها أيّامنا بوجودكِ معي، فأنتِ ألوانه الجميلة، و أنواره الوضيئة، وأصواته العذبة، وصوره البهيجة، أنتِ عصافيره وفراشاته و خضرته البهيّة المطلع، الأخّاذة الطّلّة.. »

« – فلتدم لنا إذن و ليصن وديعتها البارئ الخلّاق.. »

« – كيف ترين هذا المكان ؟ »

« – رائع ! رائع جدّا ! و بكلّ المواصفات »

« – حقّا !؟ »

« – بكلّ تأكيد.. »

« – سأطلب يدك لاحقا، المؤكّد أنّ الأمر لن يكون إلا في القريب العاجل، بعد ذلك ببضعة شهور، تُزفّين إليّ

و سيكون لنا ألبوم زفاف رائع، نحتفظ به للذّكرى، تخليدا ليوم الفرح الأكبر، سيكون أكثر من بهيج، ستُلتقط لنا صورٌ فوتوغرافيّة، و أبعد من ذلك سيتولّى مصوّر مَا بتصويرنا في شريط فيديو، نعود إليه كلّما استبدّ بنا الحنين إلى ذلك اليوم الميمون الرّائع، و ستتهاطل علينا زغاريد النّسوة الحارّة بالمودّة الدّافقة بالحبور، ونحن بعد جلوس جنبا لجنب وسط صالة الحفلات، ستعمّ الفرحة قلوب كلّ الحضور من الأهل و الأقارب و الأحباب و الأصدقاء و الجيران، و سنتلقّى التّهاني الحارّة من الجميع..»

تنفرج شفتاها بابتسامة عريضة أشدّ حلاوة من شهد العسل، و أرقّ من نسيم الأصيل، ثمّ تبوح بمكنون الذّات، و هي ليست أقلّ منّي انشراحا و اغتباطًا :

«- أجل، حبيبي ! ذلك اليوم المشهود سيكون يومنا، يوم اليمن و الهناء و السّرور، منه نبتدئ رحلة حياتنا المقبلة، الموعودة بالمسرّات و المباهج..»

ساورني الخوف على مصيرها بشكل أكثر حدّة، صار كثيفا في قلبي بحجم الضّباب الصّفيق، وهو يغطّي على الأشياء و الأحياء جميعا..

عندما ينتابنا الإحساس بالخوف من خطر ما خفيّ، كامن، داهم، نفوّض أمرنا للعناية الإلهيّة، نترجّى الخالق في ضراعة، أن لا نصاب و مَن نحبّ بأيّ مكروه كائنا ما كان..

بدأت أحسّ بالقلق يختمر فعلا، أشعر بأنّ وراء الغياب هذا أمرا ما، دبّر بليل و لن تكون عاقبته أقلّ من الأسوأ، ليس

بعيدا أن يكون هو الخطر المحدق ذاته، الذي يتهدّد بالويل و الثّبور مستقبلا، سنشرع لاحقا، في المقبل من الشّهور، في شقّ طريقه و تعبيده و قد ترجمت ذلك بخطوة أولى حين تقدّمت إلى طلب يدها من والدها مؤخّرا.

هناك ما يشغل تفكيري بجدّ، غيابها أوقعني في حرج من أمري، و زرع الشّكوك في نفسي، أسوأ الاحتمالات و أنذرها شؤما، أضحت و باتت واردة غير مستبعدة تماما..

عاد إليّ طيف السّماعة، و أنا أنزلها من يدي في عصبيّة جليّة، لا تخطئها عين الرّائي، لأعيدها إلى مكانها متأسّفا، و قد تجهّم وجهي..

– أفّ ! حتّى الهاتف لا يجيب ! أيّ نكد حظّ هذا !؟

أسحب نفسا عميقا، تحوّل في النّهاية إلى زفير مريب..

– رحماك يا ربّ ! رحماك !

أعاود النّظر إلى ساعتي ببرود و حنق، كمن يكنّ عداء سافرا، لشخص غير مرغوب فيه، لا يطيق حتّى رؤيته إلاّ مرغما..

طغت نبرة اليأس على صوتي، و أنا أتحدّث إلى نفسي هامسا : «ما العمل الآن !؟ ماذا سأفعل !؟ أنّى لي بالمخرج و الطّريق مسالكه موحلة، زلقة، مطمورة في الطّمي، لا تحيل على الخروج !؟ و كيف الخلاص من هذه المتاهة اللّعينة الملعونة إلى يوم الدّين !؟»

مع مرور الوقت وجدتني أتورّط أكثر، و أنا لا أدري كيف أنسلّ من هذه الورطة، كيف أخرج من نفق معتم ولجته مكرها..

عدت أقول بصوت هامس متوتّر، كأنّي أحدّث شخصا بقربي، طمعًا في عزائه و سلواه، غير عابئ بالمارّة، و هم بين غدوّ و رواح : «كان يجب أن أراها، مهما كان الثّمن، أن أكلّمها على أقلّ تقدير، أسألها عن موعد لي أضاعته، و أفقدَتْنيه من بين كلّ المواعيد التي جمعتنا بانتظام حتّى الآن، فأنا يقينا من سيتضرّر من غيابها، لا أحد غيري بكلّ تأكيد..»

تجهّم وجهي من جديد، عاودني عبوس أطفأ بريق عيني كلّية، كان التّوجّس يشتعل في صدري، يضرم ناره بداخلي، ليتحوّل في النّهاية إلى كومة من الرّماد..

هذا اليوم يجب أن يُنسى، ينبغي أن يدفن عميقا في الذّاكرة، ككلّ الذّكريات السّيّئة الذّكر، عادة ما يلجأ أصحابها إلى طرحها من ذاكرتهم، مثلما تطرح النّواة، ما وسعهم الجهد، هذا إن أسعفهم الحظّ طبعا، و واتتهم الفرصة و لم تعدمهم الوسيلة..

كان الوقت في هذه الأثناء يتوسّطه مغيب النّهار و هبوط اللّيل..

و لأنّني لم أعد أحتمل المزيد، استسلمت للقدر المحتوم..

في النّهاية كان عليّ أن أوقّع صكّ الاستسلام، و أنفض يدي من أمر لا قِبَلَ لي به، و أرجأت البتّ فيه إلى يوم لاحق، و ربّما إلى أيّام قادمة، و كمن يغسل يديه، من وسخٍ عَلِقَ بهما، بالماء و الصّابون، انصرفت..

20

في الصّباح الباكر تدفّق النّور شلّالاً من النّوافذ و قماش السّتائر الفضفاض، لينتشر في الدّاخل على السّعة و الرّحب..

ظللت أتثاءب، أفتح عيني ثمّ أغمضهما، غير مبالية بنداء الاستيقاظ، يتعانق الجفنان برفق و لطف، ثمّ يتوسّد أعلاهما أسفله، تأخذني إغفاءة قصيرة، و فجأة أتفتح مقلتي على أنوار النّهار البهيّة، التي انقضى شطر من صبيحته أو يوشك..

أخيرا ألبّي النّداء المستعصَى بعد إلحاح كبير، إثر بضع زقزقات أرسلها طائر الحسّون، القابع في قفصه، وحيدًا منعزلا عن السّرب..

لم أنم ليلة أمس ككلّ اللّيالي السّابقة، التي تعاقبت عليّ مثقلة بشجن، يفري حشاشة الرّوح فريًا، و يحيل القلب إلى مزَقٍ، فقد قضيتها صفحاتٍ بيضٍ تقريبًا، لم يُقدَّرْ لي أن أخطّ فيها حرفًا واحدا..

في كلّ مرّة كنت أحسّ بالقلق، و هو يُحكِم بخناقه عليّ، لم أعد أقوى على إغماض جفني، مخافة أن تعود إليّ كوابيس ذاك اليوم اللّعين، فتمتلئ إذّاك نفسي فزعا و رعبا..

طوال الوقت ظللت أتقلّب على فراشي يمنة و يسرة، في محاولة يائسة لاستمالة الكرى إلى مضجعي، وكسب ودّه و الظّفر بصداقته اللّذين ضنّ بهما عليّ، حاولت مرارًا دون أن أفلح في ذلك..

ما أزال مصعوقة بذاك الحادث المروّع، الذي لم يسبق لي و أن رأيته مرأى العين، إلاّ في أفلام العنف و القتل، كتلك التي تنتجها استديوهات (هوليوود)، و ليته كان خيالاً ينتهي بانتهاء الفيلم، بيد أنّه كان حقيقة قاسية تشرّبت مرارتها بمنتهى القسوة و العنف و الألم، و أنا حتّى الآن لا أكاد أصدّق، أو بالأحرى لا أريد أن أصدّق أنّ الذي حدث لي، قد حدث فعلاً لا قولاً، و حقيقةً لا خيالاً، و واقعًا لا حلمًا..

أصداءُ ذاك اليوم اللّعين، ما تزال تتردّد في أعماقي، تهزّ نفسي التي لم تعد تعرف طعما للرّاحة و السّكينة و الدّعة، و تمزّق قلبي أسًى و كمدًا..

صفيرُ اللّغم ما يزال يدوّي في جمجمة رأسي، و ضجّةُ الارتطاماتِ القاسية، العنيفة، المرعبة، اللّعينةِ ما تزال تصمّ طبلتيْ أذني، و حطامُ الأشياء و ركامها، و أشلاءُ جثث الضّحايا الممزّقة المتطايرة هنا و هناك، بعضها متقطّعا و متفحّما، أطيافٌ كريهة تجوب مجتمعةً الذّاكرة المجروحة المتعبة، كصهيل خيول بريّة راكضة لا تقبل التّرويض، توقظ في الإحساس بالفناء، و رائحةُ الدّم المالحة ما تزال تملأ منخري أنفي.

الجسد يهتزّ، تتشنّج مفاصله الوَهِنة، و يختنق صوته المبحوح أصلا، لم يعد إلاّ هشيما تذروه الرّياح بعيدا بعيدا،

تتوزّعه الآلام و الأوجاع، و هي بعد ما تزال محشورة وسطَ تلك الأنقاض التي غمرت الأحياء و الأموات معا، ممّن صادف وجودهم بعين المكان وقت الانفجار المروّع..

في طرفة عين استحالت القاعدة إلى استثناء، كلّ شيء كان عاديا لا ينبئ بأنّ كارثةً مَا ستقع، لا رادّ لوقوعها، أو مجزرةً مَا ستحدث، لا صادّ لحدوثها، أو أنّ رزيّة ستنزل على رؤوس الآمنين صاعقة، و إن كان النّاس يتوقّعون، بين الفينة و الأخرى، أن يقع لهم مكروه، أن يباغتهم سوط الويل الحارق المميت في أيّ لحظة كانت، و هو ينزل عليهم حاقدا، متشفّيا، مغتاظا، قاتلا.. تحوّل المألوف إلى لوحة غير عادية المشاهد، و لكن.. و مع تكرار ذات المناظر و معاودتها، انتهت إلى ألفة أليفة اتّسمت بالغرابة أوّل الأمر، ثمّ سرعان ما تبنّاها القوم باعتيادهم عليها قسرًا و عنوةً، صاروا لا يأبهون للموت و لا يبالون بالخطر، لعلّ جاذبيّة الحياة فيهم كانت أشدّ و أقوى من نداءات الموت المجّانيّ الرّخيص، الذي كان القتلة يذيقونه كلّ من يشتبهون فيه، أو يتشمّمون فيه عبق العداوة، دون أن يفكّروا لحظة واحدة، في سقوط ضحايا أبرياء، لا ناقة لهم و لا جمل في ما يحدث من صراع دام.

الخطواتُ المطمئنّ إليها تحوّلت إلى ارتباك و فوضى و هلع عارم، و إلى نشيج و عويل و أنين، و صياح و صراخ، كافّته يتناهى إلى الأسماع من هنا و هناك..

اشراقاتُ النّهار صارت عتمات كالحة، بضع دقائق فقط كانت كافية ليحدث كلّ هذا الخراب و الدّمار، و كأنّ

القيامة قد قامت، النّيران تشتعل في السّيارة المفخّخة التي تمّ تفجيرها من قِبَلِ أحدِ الانتحاريّين، والأدخنة السّوداء، الكثيفة، المتموّجة، تتصاعد و تعلو كثيفة في موقع المجزرة، أشياءُ و أشياءُ تتحطّم وتنهار أشلاءً على الأرض الصّلدة، محدثة ذاك الارتطام اللّعين، يعلو صراخ المسعفين في ذعر، و هم في سعي حثيث، يتقاذفهم الغدوّ و الرّواح، يهرولون كالمجانين من مكان إلى آخر، محاولين إسعاف ما يمكن إسعافه :

« – يا إلهي ! »

« – رحماك يا ربّ ! رحماك ! »

« – إلى هنا، هلمّوا، أسرعوا، هيّا اسرعوا..! »

« – هناك بعض الجرحى في خطر، لا بدّ من نقلهم على جناح السّرعة.. »

« – هيّا، اسرعوا أكثر! »

الهلع يدبّ في صفوفهم، و أنين الجرحى المتقطّع، يتناهى خافتا من تحت الأنقاض، كأنّه حشرجة الموت، في ما البعض الآخر مِن الضّحايا، جثث تتوسّد الطّريق، و هي ممزّقة، خائرة القوى، هامدة الأنفاس، مضرّجة بدمائها القانية الحمرة، بعضها مشوّه المنظر..

كانت تئنّ في مَن كان يئنّ من الجرحى، إصاباتهم تفاوتت من جريح إلى جريح آخر، بعدها أغمي عليها تماما، و لم تفق منها أثناءها، و كأنّها النّهاية الأبديّة قد دقّ ناقوسها، لم تعد بعد ذلك تعي شيئا، فقدت وعيها تماما حيث لم يعد يفصلها

عن الضّفّة الأخرى، إلاّ جسر قصير تعبره، و إلاّ خطّ فاصل في وهنِ خيطٍ عنكبوتيٍّ..

تململت في سريرها الأبيض، قبل أن تدرك ما حدث، تراءت لها رحلة العذاب جحيما لا يُطاقُ، و كابوسًا لا يُصدّق تجلّى لها في وضح النّهار، أحسّت بثقل إحدى ساقيها، قطّبت جبينها و أسبلت جفنيها في قسوة العذاب المستطير الذي ألهبها سوطُه، تحت وطأة الألم الحادّ الذي ظلّ يمزّق روحها قبل جسدها..

« – الحمد للّه على النّجاة ! »

بصعوبة فتحت عينيها الزّائغتين، الرّؤى تتراقص قبالتها في ضبابيّة صفيقة..

سألت في فتور و ثقل :

« – أين أنا.. !؟ »

« – لا يهمّ، ما دمت قد نجوت بأعجوبة ! » قالت الممرّضة ذلك و هي تُصلح الغطاء..

21

تطلّعت حولها و جالت ببصرها في طول الغرفة و عرضها، و هي تغالب أوجاعها الممضية المضنية في عناد و بأس، بعدما دبّ الصّفاء في رؤيتها رويدًا رويدًا..

تناهى إليها فجأة، صوت الهاتف الذي كان على مقربة منها، و هو يرنّ رنينه المتقطّع المتواصل، و حال ما رفعته إليها، خفق قلبها خفقات شديدة، و شعرت بتوتّر حادّ، يكتسحها موجه الكريه..

– نعم ! من معي.. على الخطّ !؟

– ألو ! ألو ! جمال !

ثمّ بلهجة شبه مرحة، عادت بعد لأي طويل :

– و من تظنّينه يكون ؟!

ثمّ بلهجة مغازِلة، لا تخفي شغفا باللّقاء، بلغ أقصى هيامه :

– زين الرّجال ! يا روح قلبي !

كان صوته على رونقه و ملاحته، مفاجئا لها في هذا الظّرف العصيب بالذّات، كان يمكن أن يتّصل بها قبل اليوم، و لكنّها

لا تعلم حتّى الآن بالمتاهة التي خاضها بمعاناة «سندباد البحر» الذي رأى من الأهوال، ما لا عين رأت، و لا أذن سمعت..

خفق قلبها سريعا، ثمّ سرعان ما اشتدّ خفقانها، و تراءى لها في لحظة اضطراب عارمة، أنّ قلبها سيقفز ملقيا بنفسه خارجَ ضلوعها..

و في غمرة هذا الارتباك الكاسح، تساءلت دون أن تدري شيئا عن العواقب الوخيمة، التي كان يمكن أن تنجرّ عن استفهامها هذا الذي بَدَا ساذجا، متسرّعا و مجرّدا من كلّ مغزًى.. و كأنّها سهت في لحظة ارتباك مباغتة، فلم تدري ما تقول..

- ماذا هناك.. !؟

بدا له سؤالها غريبا، و لكنّه تجاوزه و تخطّاه، لم يعره كبير اهتمام، مادام قد اتّصل بها أخيرا، بعد غياب امتدّ أسابيع، دون لقاء و لا حتّى اتّصال عن طريق الهاتف..

ألا يبدو الأمر محيّرا، أن تسأله سؤالا كهذا، لم يهضمه في البداية، و لكنّه في النّهاية ابتلعه رأسا، دون أيّ مشكلة تذكر حتّى الآن، غير أنّ الاستفهام الغريب، أثار شيئا من فضوله، أمسك عنه حتّى اللّحظة..

- ألو ! ألو ! ألو !

- نعم، أنا في الاستماع !

- لماذا لم تأتِ، لقد انتظرتك طيلة زوال ذلك اليوم.. !؟

آه، هذا هو السّؤال الذي سيظلّ، بالنّسبة له لغزا محيّرا، كرديف لتساؤلها هي منذ قليل، فهما بهذا المعنى وجهان لعملة واحدة.

لم تحر جوابا، اكتفت حتّى الآن بدور المستمع، في وفاء مستمع لبرامج إذاعيّة انتقاها من بين كلّ البرامج الأخرى، بدقّة و عناية كبيرتين..

و لأنّها لم تهتد بعد إلى وسيلة أخرى للتّبليغ، و تبيان دواعي غيابها الاضطراريّ، و لم تجد بعد فاتحة لهذا السّؤال الكبير، التزمت الصّمت اضطرارا و لو إلى حين، إشفاقا عليه لا غير، و خوفا من أن يقع عليه النّبأ الفاجع صاعقا..

لم يكن لديها متّسع من الوقت للرّدّ، فقد حاصرها بمكالمته هذه المفاجئة، لو كانت تدري تدقيقا و تحديدا أنّه سيتّصل بها اليوم، و في هذه الأثناء بالذّات، لاحتاطت للأمر كما ينبغي، لاستعدّت، ربّما، لمواجهة سيل تساؤلاته المنتظرة، و الذي سيجرفها تياره لاحقا لا مراء في ذلك، فقد تملّكها الاضطراب و عمّها الارتباك جرّاءَ المكالمةِ الهاتفيّة التي تلقّتها منه، بغتة، و هي بعد لا تدري إن كانت قد هبطت عليها من علياء السّماء، أو أنّها طلعت إليها من جوف الأرض.

كان عليها أن تناور معه، على أكثر من جبهة، أن تدور و تلفّ على أكثر من حلقة، و لكن بأيّ وسيلة و الوسائل منعدمة ؟ و بأيّ لغة و لغتها الوحيدة هي الصّمت القاهر لشجاعتها ؟

ماذا لو علم، مستقبلا، أنّها قد تعمّدت عدم الاتّصال به، و لو هاتفيّا في مقرّ الجريدة، كي تخفي عنه ما حدث لها !؟

– حياة !

– ..... !؟

- ما بكِ صامتة هكذا ؟!

- لا شيء، أنا في الاستماع إليك، لكَ أن توالي حديثك، فكلّي آذان صاغية.

- خبّريني ! ما الذي حدث !؟

هذه هي المطارحة التي كانت تخشاها، و هذا هو السّؤال الحارق الموجع، الذي كانت تسعى لتحاشيه، دون جدوى تذكر حتّى الآن، و مهما سعت في ربح الوقت مماطلة و مناورة و تلكُّؤاً، فإنّ السّؤال سيظلّ قائما، مثل راية خفّاقة في علياء السّماء، ملحّا مثل رغبة لا إبطال لإلحاحها..

يمكنها أن تبقيه جسرا عالقا بين الأرض و السّماء، بعض الوقت و لكن ليس كلّ الوقت، لا دخّان بدون نار، كما يقولون، و النّار التي اشتعلت فيها فأحرقتها، لا أحد يعلم بما سبّبت لها من حروق و ندوب و انكسارات داخليّة، قد لا تُشفى منها طوال حياتها..

- حياة !

- نعم جمال !

- عزيزتي حياة ! لقد انتظرتك طويلا ذلك اليوم، كان سيكون منعرجا آخر، حاسما في حياتنا الموعود بجنّة النّعيم على الأرض، لولا غيابك، آه على غيابك، حرام عليك و حرام على ما فعلت بي بسببه، لكِ أن تتصوّري، لو كان رجلا لبارزته حتّى يلقى حتفه على يدي، أو أهلك دونه، فالموت من أجلك وسام، و التّضحية في سبيلك شهادة... !

-.....

– لا شيء راقَ لي يومها في غيابك، لا السّيجارة المتوهّج رأسها حمرة، و التي ظلّت تحترق بين شفتي، و لا فنجان البنّ البارد، المرّ، القابع على سطح الطّاولة، بقيت وحيدًا أجلس إليها، برغبة تكاد تكون مميتة، و لا حتّى همهمات الحضور التي ربّما ضاعفت من عذابي، و لا همساتهم تلك المشتعلة وجدا، و هم يتبادلونها بكلّ حرارة الشّوق.

–.....

– ألمّ بي ألم حارق و ساورني قلق خانق، اليوم الذي كنت أعتقده يومي، أنا الذي حمّلته كلّ نبضاتي الدّافقة و أشواقي الملتاعة، سيفعم قلبي بالابتهاج و يترعه بالمسرّة، لم يعد إلاّ يوما أشعث أغبر، حزينا كئيبا، على غير العادة.

ليلة ذلك اليوم، آه على تلك اللّيلة اللّيلاء التي قضيتها على بياض، انتابتني الرّغبة في البكاء، مثل أيّ طفل حُرِمَ من رغبة ألحّ عليها إلحاحا لا إبطال له، و مُنع من الوصول إلى مبتغاه قسرا و قهرا، أحسست بالدّموع تتجمّع في مآقي حارقة، كاوية، كما لو أنّها كانت على أهبة الانحدار، و لولا بقيّة من رجولة عصيّة لذرفت عيناي الدّمع مدراراً..

22

بالكاد كتمت شهقة باغتتها، و عضّت على شفتها السّفلى ثمّ اجتاحها سيل من الحرج داهم، يكاد يجرفها من موضعها، و داهمها موج من الشّجن عاتٍ، هادر، يكتسح مرفأ قلبها المكلوم، الرّهيف أصلا..

– حاولت الاتّصال بك دون جدوى، و توالت المحاولات تباعا، الواحدة تلو الأخرى، دون أن تفضي إلى نتيجة، تصوّري، كلّ الجهد المبذول بشقّ الأنفس ذهب سُدًى، ضاع في مهبّ الرّيح، أكثرت من المحاولات و استزدت منها لعلّ صوتك يتناهى إليّ، حتّى أشفي غليلي من غياب أذاقني كؤوس المرارة، كبديل لغيابك صوتا و صورة، و لكنّ شيئا من ذلك لم يحدث، و هذا الذي زاد في غبني، و ضاعف من حسرتي، حتّى خطّ هاتفكم المنزليّ الذي خذلتني الذّاكرة من استعادة أرقامه بشكل صحيح، عمل على تأزيم الوضع أكثر، بعد أن ضاع منّي الكنّش ..

مرّت أيّام و أيّام، حتّى أنّني خلتها دهرا، ذقت من خلالها الويل، لم يقدّر لي أن أراك فيها مرأى العين، و لا حتّى

أن أسمع صوتك الذي تضاعف شغفي به حدّ الاشتهاء و التّشهّي..

أصابعها مشدودة إلى سمّاعة الهاتف الثّابت، دون أن تجرؤ على التّفوّه بشيء، دون أن تقوى على مبادلته بضع كلمات، و لو محتشمة، مقتضبة، مختزلة بما قلّ و دلّ، لا شيء من ذلك القبيل إلى الآن..

ظلّ الكلام كلامه، و الحوار حواره، في سجال على انفراد، بعد أن غاب عنه الطّرف الآخر، كان من المفترض أن يسجّل حضوره، و لكن إلى متى !؟ إلى متى !؟

– حياة ! يا أميرتي ! يا منية القلب ! و حشاشة الرّوح ! قد لا تصدّقين لو قلت لك أنّ حبّي قد فاض عن آخره، لم يعد هذا النّابض الولهان يصبر على فراقك، و لا على غيابك، فأنت جسر عبوره نحو ضفّتك المشتهاة، لو ألقيت الآن حنيني إليك إلى البحر، لغطّى على زرقته و لَفاض..

– ..... !؟

– ماذا يعني كلّ هذا الغياب، و لمدّة أسابيع تقريبا، و ربّما، أكثر من ذلك، كنت ألهث خلفك راكضا، بحثا عنك في البرّ و البحر و الجوّ، أبصر قدّامي ثمّ أتلفّت خلفي، فلا أعثر لك على أثر، أنظر على يميني و على شمالي، فلا أراك إلاّ طيفا يحملني الشّوق إليه، على جناح طائر بحّت حنجرته، و فقد متعة التّغريد، بعد أن تاه بحثا عن وكر لم يعد وكرًا..

في الحين أحسّت بشيء خفيّ يقفز بداخلها، ثمّ يتلوّى كالحيّة الرّقطاء، و هو يوالي لها بوحه الدّافق الحارّ، يبدأ و يعيد، فلا يكاد ينتهي إلاّ على بدء، دون أن تتفوّه بكلمة..

اِستولى عليها الارتباك و تملّكها الرّعب، ممّا زادها تبكّما، في حين ظلّ هو يوالي، دون أن يدري بالكارثة الدّاهمة الكاسحة، بوحه المشتعل يفيض من اللّوعة و الاشتياق :

– لا تلومينني ! حاولت ليس مرّة الاتّصال بك هاتفيّا طوال هذه الأيّام، فما أفلح مسعاي ثمّ أنّني فكّرت في المجيء إليك، غير أنّ عنوان الدّار اختلط عليّ أمره و تشاكل هو الآخر، لندرة تردّدي إلى البيت و تلك مصيبة مضاعفة لا أدري كيف حلّت بي، و لا كيف نزلت عليّ على غير الرّحبة و السّعة، ثمّ أنّني، طيلة مسعاي الحثيث هذا، كنت أعتقد أنّك ستتّصلين بي لاحقا، و هذا ما لم يحدث إطلاقا، صدّقيني لم أفهم ما حدث لي، هل وقع كلّ ذلك بمحض الصّدفة أم بتدبير مدبّر لا كنه له و لا ماهية، يؤسفني أن لا أملك جوابا، لقد عشت متاهة حقيقيّة لا يتصوّرها خيال، لا يحتملها صبر بحجم و كثافة صبر أيّوب، و لا يقبل بها عقل و لا يرضى عنها منطق، متاهة لست أدري كيف دلفت إليها و لا كيف أخرج منها لاحقا، أعلم أنّكِ قد تكونين بحاجة ماسّة إليّ في هذه الأثناء بالضّبط، و لكن لا أدري ما الذي يتعيّن عليّ فعله !؟ أين كنتِ ؟ و ماذا جرى تحديدًا ؟ لا أعلم سبب غيابك كلّ هذه المدّة، فالرّجاء إفادتي بأجوبة مقنعة لكلّ تساؤلاتي هذه، و مع ذلك أحمد اللّه أنّني وُفِّقت في الاتّصال بك، أنا سعيد الآن لأنّ صوتك وصلني أخيرا خمسة على خمسة، هذا انطباعي الأخير، يكفيني حبورا و سرورا أنّني استطعت في النّهاية، أن أسمع صوتك، فلكم تقت إليه في غياب صورتك...

مكثت منطوية على صمتها، تلوكه بحرقة موجعة و تجترّه بأسًى مضاعف، خانتها الجرأة في مصارحته، لم يسعها إلاّ أن تدسّ ما خفي عنه، بعد أن خذلتها شجاعتها، و لكنّ اليوم الذي سيحملها مرغمة على البوح له بكلّ شيء، يوم قريب، آتٍ لا محال..

- سنلتقي في أقرب فرصة، سأراكِ حتما عمّا قريب، أنا في اشتياق متزايد إليكِ، لا تشفي غليله و لا تروي ظمأه الأنهار مجتمعة، إفتقدتك كثيرًا هذه الأيّام، كان صعبًا عليّ أن لا أراك مرأى العين، أتحدّث إليكِ طورًا و أصغي إليكِ طورًا آخرَ..

و تساءلت في قرارة نفسها بمرارة بالغة، و بأسًى ممضٍ أحالها إلى شبح لا يقوى الوقوف على قدميه : «إن كان هذا حاله فماذا لو يدري بما جرى لي !؟ ماذا لو يدرك حقيقة الأمر التي هو مدركها لاحقا، و لا بدّ ممّا ليس منه بدّ، أطال الزّمن أم قصر..»

- باي !

- باي !

- سأراكِ....

استجمعت شجاعتها في لحظة استثنائية صنعت الفارق، بين ما كانت عليه منذ لحظات وجيزة فقط، و بين ما هي عليه اللّحظة، برز ذلك جليّا في ردّها عليه :

- تلك أمنيّة، لا أراني موقنة من تحقّقها..

تغيّر لون وجهه بغتة، فقد فاجأته بتلميح مريب، و للتوّ انبرى يقول بنبرة المحتجّ :

– حياة إلى ما ترمين ؟! هل في الأمر إنّ.. ؟!

– ما أعنيه تحديدا و تدقيقا، هو أنّ الأمانيّ صعبة المنال...

– هذه لهجة لم أعهدها عنك، هل طرأ طارئ، فاضطرّك لتغيير رأيك فيْ !؟

لم تتمالك نفسها، فقد ندّت عنها تنهّدة، لم تقوَ على كتْم أنفاسها.

– حياة ! ماذا بك، هل أنت مريضة ؟

– مجرّد وعكة سينقشع غيمها عن سمائي سريعا..

– أرجو أن لا يطول الأمر، فأنا أكاد أجنّ من فرط شوقي و اشتياقي إليك، طيفك رفيقي في كل الدّروب و المسالك، أنيسي في غربتي و وحشتي، تشتدّ عليّ وطأته، كلّما جنّ اللّيل عليّ، فإذا يتم كلّ الدّنيا يتمي، و إذا خواء العالم خوائي.

– أرجوا أن أراكِ قريبا، قريبا جدّا ؟

– هذا رجاء يحاذي الأمنيّة !

– عدنا إليها ثانية.. ؟!

– لا أودّ إثارتك، صدّقني، و لكنّ الأمر...

– هل أفهم من هذا، أنّ الجسر الموصول بضفّتينا قد انهدم !؟

– جمال ! أرجوك، لا تتفوّه بهذا..

– هل قدَرُ الذي كان بيننا من وصال وألفة أن لا يكون.. !؟

– رجاء، يكفي هذا، يكفي.. !

- و حبّي لك، هل قُدّر له أن يُشطب بجرّة قلم، هكذا.. !؟

- ثق أنّك في القلب دوما..

- غدا سآتيكِ حيث أنت، لقد استعدت كنّشي، و قد دوّنت على إحدى صفحاته عنوان الدّار و رقم الهاتف أيضا، سأهتدي إلى المسكن بطريقتي الخاصّة..

-.....

- أراك غدا، تأكّدي من ذلـ..

حين كان على وشك الإنتهاء من كلامه هذا تفاجأ بانقطاع المكالمة..

23

.. و أنا في طريقي إليها، شعرت لسبب ما، لم أدرك كنهه، كما لو أنّه السّرّ الدّفين، خانني أن أقف على خفاياه، بقلبي ينخلع من مكانه.

خيّل إليّ أنّني أقف على جرف صخريّ، ضربته موجة كريهة، كادت تسحبني معها، بل كدت أنسحق تحت وطأتها.

في قرارة نفسي أتساءل بحرقة موجعة : " هل المرض هو كلّ ما في الأمر، أقعدها الفراش إلى حين برئها، لا تلبث أن تستردّ عافيتها، مع مرور الوقت لاحقا، أم أنّ أمرًا آخرَ أخطر و أشدّ، طرأ على الوضع آخذا في تأزيمه ؟! تُرى، كيف سأجدها حين تلتقي نظراتنا !؟ و على أيّ حال سألاقيها ؟!، بل بأيّ وجه ستلقاني و بأيّ وجه سألقاها أنا الآخر !، و كيف ستكون ردّة فعلها، عند أوّل إطلالة لي معها، و هي على نحوٍ لا يمكن، ربّما، تصوّره عاديا ؟!

مشاعري تلوح لي مشوشّة، مضطربة، يتجاذبها التّفاؤل و التّشاؤم، و يتصارعها الإحساس بالرّجاء و اليأس، فجأة أحسست بسيّارة تمرق بمحاذاتي مسرعة، فدوّى أزيزها بقوّة

و قسوة، أصمّ أذنيْ، وكهرب أعصابي، وهزّ فرائسي، ثمّ أحسست بسخونة تعتري كلّ الجسد، و لولا لطف اللّه و عنايته، لكنت الآن تحت عجلاتها جثّة طريحة الأرض، تصارع الموت فيأبى هو مصارعتها.

بعد أن كبح من جموح طيرانه، و صرّ محرّك العربة صريرا موجعا، كادت دقّات قلبي أن تتوقفّ، بسبب ما أحدثه من ضجّة بغيضة، مؤلمة،يخرج السّائق رأسه من النّافذة، لاعنا هذا اليوم، صابّا جامّ غضبه، معاتبا إيّاي في لؤم، لا يحتاج إلى أيّ تعليق :

(- شوف قدّامك! اللّه يعطيك العمى يعميك!)

كانت لهجته حادّة، ناقمة، جارحة، سليطة اللّسان، لم أرد على صاعه بصاعين.

ثمّ بأقلّ حدّة :

(- واش راك حايب تموت !؟)

ظللت للحظات تحت وقع الصّدمة، كان واضحا أنّني كنت شارد الذّهن، و أنا أهمّ بعبور الطّريق السّريع، صوب الرّصيف المجاور، حين أبرقت العربة بكلّ ذلك الجنون، و لعلّ الخطأ خطإي.

يجتمع حولي المارّة، تصادف وجودهم مع الحادث الذي كاد يطرحني أرضا، و ربّما، كنت سألقى حتفي بسبب شرودي، يرمقونني بعيون ملؤها الاستغراب، تترامى إليّ نظراتهم المشبعة فضولا، ثمّ يتناهى إليّ أكثر من صوت مواسيا :

(- لا باس عليك!)

(- حصل خير!)

(- سلامت راسك !)

و يتدخّل رابع :

(- أحمد ربّي اللّي سترك !)

يعلّق بعضهم على حادثة، بقدرة قادر آلت في الختام، إلى مآل حميد محمود، كانت تلك منّة من المنّان، و كان ذلك لطفا من اللّطيف، بعدها يشرع جمع المتحلّقين حولي، في الانسحاب متبدّدين و متلاشين تدريجيّا.

بدأت أتمالك أعصابي، بعد أن تراجع وقع الصّدمة عليّ شيئا فشيئا، و أسترجع ما هدر من أنفاسي هدرا، حينما انزاح من على صدري، كلّ ذلك الرّعب تدريجيّا، الذي أثقل أنفاسي و جعلها لاهثة، و دقّات قلبي متسارعة، و سمّر قدمي حتّى خيّل إليّ، في لحظة ذهول ممّا وقع، أنّ شللا ما قد أصابهما.

لحظات من شرود تافهة، كادت تكلّفني حياتي، يا لحمقي! على كلّ حال حصل خير، الحمد للّه على السّلامة حمدا كثيرا.

أخيرا وجدت نفسي في الطّرف الآخر من الشّارع، مواليا سيري نحو العمارة التي تقطن بها، كنت قد انحرفت يمينا جهة «المسرح الوطني الجزائريّ»،المسمّى حاليا بمسرح «محي الدّين بشطرزي»، ثمّ مرورا بمقهى (الطّوطنفيل)، المعروفة بمقهى الفنّانين و الممثّلين.

مشيت مترنّحا نتيجة أرق ليلة أمس، تحاملت على السّير بما يشبه الوهن، و حين شارفت مدخل «العربي بن مهيدي»،

انشغلت بهذه الكلمات أتمتمها، كمن به مسّ من الجنّ : «العمارة رقم (...؟)، رقم (...؟)، رقم....؟».

أعلّق على المشهد السّخيف، بمرارة مَن يُمْنَى بهزيمة نكراء: «يا إلهي ! لم أعد أذكره، أيّ حماقة هذه !؟»، ثمّ ما ألبث أن أصيح متأفّفا: «اللّعنة..! اللّعنة عليّ..!».

للتّوّ أهرع إلى الكنّش، أخرجه من جيب قميصي، بعصبيّة بادية الملامح، و سريعا أقلّب صفحاته الصّغيرة، بحثا عن الرّقم المطلوب، أخيرا يقابلني الرّقم (30)، أعلّق باقتضاب : «هو ذاك، حسنا ! لا مشكلة..بعد الآن..»

الشّارع فسيح الأرجاء، ممتدّ الآفاق، مترامٍ و كأنّه خطّ هندسيّ مستقيم، إلى غاية «البريد المركزيّ»، مرورا بردهة «الأمير عبد القادر»، حيث ينتصب تمثاله وسطا، محاطا بأشجار برّيّة على الجانبين، تتخلّل رصيفيْه دُورٌ و مبانٍ جميلة المنظر، بمعماريّتها المتميّزة و زخارفها الرّائعة، يعود تاريخها إلى فترة الاحتلال الفرنسيّ للجزائر، و أسفلها تنتشر حوانيت، و دكاكين، و محلاّت واسعة الأرجاء، واجهاتها الزّجاجيّة التي تُضاء ليلا، تغري المارّة بما تقدّمه من سلع و بضائع، في غياب الزّبون الحقيقيّ، أو في انتظار الزّبون المفترض، باستثناء قاعات الشّاي، و محلاّت بيع البيتزا، و الأكلات الخفيفة السّريعة، فالإقبال عليها منقطع النّظير.

هذا الحيّ الرّاقي تقريبا، الذي يظلّ النّاس من كلّ الفئات العمريّة، يحجّون إليه طوال أيّام السّنة، أكثرهم للتّجوّل و التّنزه، لم يعد راقيا، فأكياس النّفايات منتشرة في كلّ مكان، ملقاة

على رصيفيْ الشّارع، حيث تنطلق منها روائح كريهة، تزكم الأنوف و لكنّ المارّة لا يعبأون، و كأنّ الأمر عادٍ، و الزّحام به يظلّ على أشدّه، و فوضى الأحياء و الأشياء عارمة، ما من حدود تنتهي عندها، و الهواء به ملوّث، بفعل الغازات التي تقذفها العربات، و الشّحّاذون من كلّ الأعمار، يتوزّعون على ناصية طريقه، يمدّون أيديهم في عناد طلبا للصّدقة، و لعلّ أكثرهم ليس أكثر من محتال، بقناع بائس محتاج.

أقف عند أوّل عمارة، تقابلني في الطّرف الآخر للشّارع، كانت قد تبدّت لي على بُعد أمتار من مدخل «العربي بن مهيدي»، محاولاً استبيان رقمها، أهمهم قائلا : «ر..قم، رق..م (22)»، ثمّ أعلّق متأسّفًا : «ما أزال بعيدا عن الهدف المنشود بلوغه».

من الواضح أنّ ثمّة مشوارًا في انتظاري، عليّ قطعه بأسرع ما يمكن ربحا للوقت، كان عليّ إذن أن أستحثّ المشي، تاركا بين الخطوة و الأخرى فرجة أكبر، سرت مهرولا و أنا أحاول أن أتحاشى الاصطدام بالكتل البشريّة، التي يعجّ بها الشّارع كالمعتاد، محاولا أيضا، ربّما، أن أتفادى الارتطام بشيء صلب ما، يقبع على حافّة الرّصيف، هنا أو هناك، لا أدري.

بعد خطوات سريعة، متباعدة في ما بينها، و لكنّها، مع كلّ ذلك، متقطّعة، التّقطّع الذي كانت وقفة التّطلّع عند كلّ عمارة تجبرني عليه، تمكّنت من مناصفة الشّارع بمشقّة تكاد تكون بالغة، ما كان يهمّني في شيء ما سألاقيه من وصب و مشاقّ، فمهامّ لقياي بها كان على رأس كلّ الأولويّات.

بدَت لي العمارات متشابهة واجهاتها، بما فيها مداخلها تقريبا، متلاصقة الجوانب، أقف عند إحداها رأسا جهة يمين الشّارع طبعا، بعد أن كنت قد جاوزت قبلها، و على الفور أنشغل بالتّطلّع إلى الرّقم أعلاه، عندئذ أهمهم متباطئا، متلعثما تقريبا، كشخص في أوّل عهده بأبجديّات الكلام : «عـ..مـارة..عـ..مارة رقم (....)، نعم رقم (24)».

كان عليّ أن أضاعف الجهد، أن أسارع الخطو أكثر، و كأنّني في سباق مع عربة الزّمن التي تتقدّم دوما إلى أمام، و لا تحفل بالمتأخّرين عن اللّحاق بها، في هذه الأثناء، كان يتعيّن عليّ اجتياز أربع عمارات كاملة، حتّى أصل إلى العمارة المحدّد رقمها، كما هو واضح عندي في الكنّش.

مثل أيّ مخبول أبدو ماثلا للعيان، لن يخطئني راءٍ من المارّة، لو صادف و أن ألقى إليّ بنظره عفو الخاطر، و قد يتملّكه الانطباع بذلك، و أنا على تلك الحال من الفوضى و ما يشبه الهذيان.

24

أهرول، ككلّ مرّة، ثمّ أتوقّف حين تستوقفني هذه العمارة أو تلك، كان الدّور محدودا و محسوما، في تمثيليّة لا أدري في أيّ خانة يمكن إدراجها، أهي تراجيديا أم كوميديا أم هي معًا ؟ كان عليّ أن أتصيّد العمارة تلوَ الأخرى، و كأنّني في جولة للقنص، أترقّب العمارات ملقيا إليها النّظر مليّا، ثمّ ماسحا مداخلها الواحدة تلو الأخرى، في محاولة لتبيان أرقامها رقما فرقما، أوزّع نظراتي عليها، ثمّ أدقّق النّظر فيها، كلّما دنوت منها، و بصعوبة يتسنّى لي قراءة أرقامها المغبرّة، الباهتة الألوان : «هذه العـ..مـارة رقمـ..ها، كم رقمها يا ترى ؟ (26) أجل ! و تلك تحمـ..ل الرّقـ..م، الرّقـ..م، الرّقم (28)، صحيح، و ما يـ..ليها رقمها هـ..و، هـ..و، هو (30)، نعم ! هو ذاك.»

أتهلّل مغتبطا بمسرّة مبطنة : «حسنا ! لم يبقَ الكثير، الرّقم المطلوب لم يعد إلاّ على بعد مسافة قصيرة جدّا من هنا»، أهرع إليها مسرعا.

أخيرا..أجدني وجها لوجه مع العمارة، التي كان البحث عن رقمها، على قدم و ساق، أجل ! هذه هي العمارة التي تقطن

بها، هي ذي، لا ريب في ذلك مطلقا، الحمد للّه أنّ المسعى آل إلى نتيجة مضمونة ضمانا كاملا غير منقوص.

هذه هي العمارة، إذن، التي تقطن بها، تلوح لي على بعد بضعة أمتار، سأبطئ خطاي علّي أستردّ بعضا من أنفاسي المهدورة، أتوقّف عند مدخلها لحظة، أرفع رأسي إلى الشّرفة، آملا في رؤيتها هناك، على عادة الماكثات في البيوت عندنا، اللّواتي يضيق بهنّ المكوث طويلا في البيت، فلا يجدن في النّهاية إلاّ الشّرفات، و في أحسن الأحوال النّوافذ، يطلن منها إلى الشّارع، يتملّينه في شوق و اشتياق، ثمّ يرتدّ إليّ البصر خائبا في الختام.

أخيرا ألج إلى الدّاخل، الذي بدا مغبرّا و متّسخا بعض الشّيء، حاولت أن أستعمل المصعد غير أنّني ألفته معطّلا، كان عليّ أن أصعد السّلالم ففعلت، بدأت أتجاوز الطّوابق واحدا واحدا، بخطى متململة ثقيلة، مثقل الأنفاس لاهثها، و مع ذلك لم يبارحني قطّ الشّوق إلى رؤيتها للاطمئنان عليها، فقد أحسست به يسبقني إليها.

ترى..كيف هي الآن ؟ هل هي طريحة الفراش، و أنا غافل عن ذلك، من المؤكّد أنّها ستأخذني باللاّئمة، و ستشتدّ قسوتها عليّ، و لكن ما ذنبي أنا، إن كان خطّ هاتف المنزل متوقّفا، ربّما، لست أدري على وجه التّحديد و التّدقيق، لقد حاولت مكالمتها هاتفيا، المحاولة بعد الأخرى، فلم أفلح في النّهاية، باستثناء المكالمة النّاجحة ليوم أمس، بعد انقضاء أيّام و أيّام، حين أمكنني الاتّصال برقم هاتف البيت، كنت قد تذكّرته متأخّرا.

لحظات بعد ذلك، أجدني وجها لوجه مع الطّابق الأخير، أقف قبالة باب مسكن أهلها، الواقع يمين العمارة، التي لا تتعدّى الخمسة طوابق، أتمهّل هنيهة كما لو أنّها وقفة تأمّل، لا بدّ منها و لا محيد عنها، قبل أن أمدّ يدي إلى الزّرّ.

لحظات أخرى شابها التّوتّر، و التّوجّس خيفة ممّا يمكن قد وقع لها، ثمّ أضغط ليرنّ الجرس أخيرا.

فتح والدها الباب، بعد أن قرعت الجرس في توتّر، تباطأ قبيل فتحه، فقد أطلّ من الثّقب الزّجاجيّ الضّئيل الحجم، الدّائريّ الشّكل، و لعلّه لم يشأ أن يفتح لي إلاّ عن مضض، ربّما لحاجة في نفسه، ظلّت غامضة بالنّسبة لي في هذه اللّحظة، فاستقباله لي لم يكن البتّة مناسبا، لمَن يُفترض أنّه زوج ابنته مستقبلا، حين تقدّمني إلى قاعة الاستقبال، دون ترحيب جدير التّذكير به.

- أدخل !

- شكرا !

- اِجلس..!

- ..... !؟

و حين شعر بارتباكي بطرف خفيّ، بادر إلى استدراك الأمر :

- لا تتردّد، تفضّل بالجلوس.

- يزيد فضلك.

جلست على الأريكة التي على يمينه، كان ذلك عن مضض، و كأنّني جلست على دغل من الأشواك، ولفّنا الصّمت إلى حين.

هذا الموقف المريب ضاعف من حيرتي، أمر هذا الاستقبال غير معقول، لا شكّ أنّ في الأمر شيء، فاتني استبيانه حتّى الآن، و لكنّني تمالكت أعصابي، إذ أنّني امتنعت عن مجاراته، فعدت أسأل عنه، كاظما بعض ما لاح من بريق غيظي :

(- واش راه الحاج ؟)

(- كما يحبّ ربّي.)

(- سبحانه ! على كلّ حال، ما زالت البركة.)

(- اللّه يسلّمك، يبارك فيك.)

من الواضح أنّه لم يكن البتّة متحمّسا للحديث معي، أمّا بشأن ما أبداه من قلّة الحفاوة عند استقباله لي، إستدركه متأخّرا بعض التّأخّر، في ما بعد، فقد كان اضطرارا لا اختيارا، إذ سرعان ما لاذ بالصّمت، و لكنّه عاد يقول في غير ما حماسة، حين كنت على وشك أن أستأنف معه حديثا مبتورا، كان السّبب في بتره، على ذلك النّحو الكريه :

(- خير ما شقّاك !؟)

(- غير الخير، جيت برك انطلّ عليكم، واجب الزّيارة ملزوم عليّ.)

(- صحّ ! معك حقّ.)

(- و الحاجّة واش راهي ؟ صحّتها بخير ؟)

(- لا باس ! الحمد اللّه ! راهي غايبه.)

(- ما نكذبش عليك، كنت حايب نشوفها.)

(- يبدو لي اطّوّل.)

(- معليهش ! نهار آخر.)

(- .....)

(- يظهر لي حياة ما هيش في البيت؟!)

(- لا..راهي في غرفتها.)

(- راقدة؟)

(- لا..)

(- نقدر نشوفها؟)

(- راهي مريضة..)

ثمّ، بغتة، و في لمح البصر، فاجأني بوقوفه، و كأنّه عقد العزم على وضع حدّ لحضوري بمقصلة التّوديع، فقد فهمت مغزى وقوفه ذاك، الذي بيّت فيه، ربّما، نيّة مرافقته لي حتّى الباب الخارجيّ للدّار.

عاد إلى جلوسه شبه مرتبك، حين لمح أنّني لم أحرّك ساكنا، و أنا أخاطبه قائلا :

(- من وقتاه و هي مريضة؟)

لم يحر جوابا، لاذ بصمت أطبق عليه كلّية.

واضح أنّني حين فاتحته بشأنها، أصيب بسيل من الارتباك، داهمه على حين غفلة، حتّى أنّه لم يعد يدري كيف و لا ماذا يقول، و لعلّ الارتباك ازداد و تضاعف، حتّى أنّه استحال إلى ما يشبه الهلع، محاولا أن يقنعني بعدم جدوى رؤيتها الآن، متعلّلا بالظّرف غير المواتي، دون أن يفصح حقيقة عن الدّواعي العميقة، التي كانت وراء

موقفه هذا، و أنا أستأذنه لرؤيتها، طالما أنّها غير قادرة على مبارحة غرفتها :

(- اسمح لي نطل عليها.)

دخل معي في حوار قصير شبه عقيم، لم يفضِ إلى نتيجة تسجّل لصالحه كما كان يرغب، فقد تنازل عند رغبتي في لقائها، بعد إلحاح شديد منّي، لم يقوَ أبدًا، و لن يقوَ على إبطال مفعوله، لو تمادى في عناده هذا :

(- دقيقة، نمشي نخبّرها بقدومك)

بعد قليل، عاد إليّ والدها، و قد أذن لي بالدّخول.

25

تراءى لي الباب نصف مفتوح، حين هممت بالدّخول أحسست، و كأنّني أدخل إلى غرفة إعدام، أطلت برأسي أوّل الأمر إلى الدّاخل، ثمّ ولجت غرفة نومها، و أنا أقدّم لها تحيّة الصّباح، في حين أنّ النّهار كان قد جاوز انتصافه بقليل تقريبا.

(- لا باس عليك، شدّة و تزول!)

و سرعان ما انسحب الوالد متفهّما، فاسحا لنا المجال واسعا، في حين أشارت هي إليّ بالجلوس، و قبل أن أفتح فمي بكلمة، سبقتني إلى القول :

- أردت رؤيتي!

أدهشني ما سمعت فقلت للتّوّ :

- أجل! و لم لا ؟!

- فجئت بنفسك تجرّ قدميك، إلى غاية غرفة نومي ؟!

- كيف لا آتي و لا أسأل عنك، بعد كلّ هذه الأيّام من الغياب، و التي كانت بالنّسبة لي ما يشبه الحداد ؟

- و قبل اليوم أين كنت أيّها الهمام ؟!

أثارني قولها هذا إثارة بالغة، أوشكت أن تنال منّي، بيد أنّني تجاوزته متظاهرا بالصّمم.

– آه، لكم تعذّبت طيلة غيابك هذا، لم أصبر على غياب يوم، فكيف لي أن أصبر على غياب أيّام، امتدّت إلى أسابيع.

أسند كتفي إلى المقعد الخشبيّ، ثمّ بعد هنيهة من الزّمن، أردف قائلا :

– كلّ هذه الأيّام التي انقطع عنّي الاتّصال بك، خلتها عقودا من الزّمن، حتّى أنّ النّوم كان قد جفا مضجعي، لم أكن أنام جيّدا، كنت أتقلّب على جنبيْ أكثر من مرّة، و طيفك لا يكاد يبرحني.

هزّت كتفيها مغتاظة ثمّ همهمت، مستكملة ما تبقّى من تقريعها لي :

– ..ثمّ انتظرت أكثر من ثلاثة أسابيع تقريبا..؟!

– ماذا أفعل ؟ لقد أقعدتني الجريدة عن المجيء إليك، بعد أن أخذت جلّ وقتي، كان لديّ عمل كثير لإنجازه، ينتظر منّي أن أتفرّغ له بغية إتمامه، قبل ذلك حاولت الاتّصال بك فما أفلحت، حاولت أيضا أن أزورك غير أنّ رقم العمارة تشاكل عليّ، بعد أن أضعت كنّشي، أيّام كانت قد مرّت، حين استرجعته بالصّدفة، في حجرتي بالحيّ الجامعيّ، ثمّ لا تنسي أنّني أنحدر من إحدى البلدات الدّاخليّة للوطن، و الرّيف ليس كالمدينة، ثمّ إنّ مكوثي هنا لا يكاد يتجاوز الأربع سنوات، أنا، كما ترين، جديد عهد بالجزائر العاصمة، هل هذا واضح ؟!

مددت يدي لتلمّس أصابعها المتوتّرة، المتراخية على صدرها، فأسرعت منتفضة لتبعدها فورا :

– لا داعي للغضب ! حقّك عليّ، و لكن..؟

– و لكن ماذا أيضا، و حجّتك معك !؟

– كان عليك إذن، أن تتّصلي بي فورا، أن لا تتقاعسي عن ذلك، لديك رقم هاتفي بالجريدة، فلماذا لم تهتفي لي ؟!

و في ليونة مثيرة، غير منتظرة بادرتني إلى القول :

– لعلّك لست غاضبا، لعدم حضوري إليك، في ذلك اليوم الذي تواعدنا على الإلتقاء فيه.

– لا يمكنني أن أغضب عليك، و لكنّني، بالمقابل، كنت حزينا جدّا حدّ الشّرخ...

و كمن يستدرك غير متأخّر، في شيء امتزج فيه الجدّ بالهزل، علّقت :

– من ذا الذي سيعوّضني كلّ تلك السّاعات الضّائعة، من عمر لقاء ضاع هو الآخر ؟!

داهمتني حدّتها على حين فجأة :

– إن كان هذا ما ترى، فأنا من سيمتنع عن لقائك بعد اليوم.

أردف قائلا :

– لا تفهميني خطأ، كان صعبا عليّ أن لا أراك، في ذلك اليوم تحديدا، كنت على أهبة لأن أنحت الصّخر بأصابع يدي هاتين، و أمشي على الجمر بقدمين حافيتين، من أجل أن أراك، من أجل أن أتحدّث إليك و أسمع منك.

– و ها أنت ذا تراني مرأى العين في النّهاية.

– أجل ! و قد أراحني ذلك كثيرا.

بدَا المكان باردا، مقفرا، موحشا، و لاح اللّقاء فاترا أيضا و مملاّ، خالٍ من المشاعر التي كانت تتأجّج سابقا، في عنفوان كلّما شدّنا موعدُ وصالٍ مَا.

في البداية واجهت الموقف بأناة، معتبرا إيّاه مجرّد أمر عاد، قد يحدث في جميع الحالات و في كلّ الظّروف، بين خطيبين جديديْ عهد بالخطوبة، غير أنّ الأمر خلته الآن قد دخل طور التّأزّم، و ألفيتني حتّى الآن عاجزا عن فعل أيّ شيء، حيال هذا الطّارئ الذي بدأ في تعقيد الموقف أكثر..

نظرت إليها محدّقا بعينين جانبيّتين، ثمّ انشغلت مفكّرا و أنا أتصفّح وجهها، ككتاب يقرأ من عنوانه، كان يَعِد متصفّحَه، في ما مضى، بكلّ اللّذّات و المتع، و بكلّ المباهج و المسرّات :

«ترى ما سرّ كلّ هذا الحضن البارد، المثلج الذي لقيتني به!؟ ربّما أكون قد أثقلت عليها ببوحي، ليس هذا أوانه الآن، كان عليّ من الأفضل، أن أرجئه إلى موعد لاحق، في لقاء حميميّ مرتقب، من يدري..!؟ فقد تكون بأمسّ الحاجة إلى الرّاحة، بعد مرض أصابها فأقعدها الفراش، طيلة كلّ هذه الأيّام، و أنا على جهل مطبق عن ذلك...

لعلّها مازالت غاضبة منّي، و لكن ما كان يجب القيام به، قمت به قدر المستطاع، بعد يومين من محاولة الاتّصال بها هاتفيّا، لم تُكلّل بالنّجاح، و في ما أعقب من أيّام أخر،

اعتقلتني الجريدة متلبّسا بجرم الكتابة، واستغرقت وقتي كلّية، فانشغلت عنها أيّاما متعاقبات، فهاتفهم لا يجيب، ظلّ ممتنعا عن الرّدّ، لا شكّ أنّ الخطّ كان معطّلا، و كان في ظنّي أنّها هي مَن ستتّصل بي، و لكن يبدو أنّ المرض فاجأها على حين غفلة، فامتنعت هي الأخرى عن مهاتفتي، لكلّ أسبابه إذن، فلا لوم و لا تثريب... »

كانت هذه تخمينات مفترضة، احتمال تصديقها أكبر من احتمال تكذيبها، حاولت أن أقنع بها نفسي، كي أضع حدّا لكلّ جدل عقيم، قد يلوح أفقه، بأكثر حدّة و قسوة، لا يجدي نفعه و لا ترجى فائدته.

التفتت نحوي قائلة، بعد لحظات من الصّمت، طالت و لم تقصر، و قد ارتسمت فوق شفتيها ابتسامة خافتة :

– يسعدني كثيرا أنّك تحبّني، بكلّ هذا القدر من الهوس، بكلّ هذا الكمّ من الجنون، بكلّ هذا الفيض من الوله و الولع، و بكلّ هذا الزّخم من الشّوق و الاشتياق...!

ثمّ سرعان ما أخفتها تقطيبة، علت الوجه المشرق منذ حين، و هي تردف :

– و لكن... ؟!

لم أمهلها أن تأتي على آخر الاستدراك، فقد قاطعتها بسرعة البرق :

– لا داعي لإثارة كلّ ما حدث منذ أيّام و أيّام مجدّدا..

قمت من مكاني أدنو منها ثمّ تراجعت إلى الخلف، بعد لحظات قليلة فقط، و كأنّ حاجزا ما انتصب قبالتي بغتة، مديرا

ظهري إليها، لأكمل حديثي في غيظ تقريبا، مستعينا بإيماءات من يدي، كتأكيد و إلحاح على ما سأتلفّظ به اللّحظة :

– دعي عنك هذه الملامة، لن تجدي في شيء الآن...

أشارت إلى الكرسيّ الذي قبالتها، دعتني إلى الجلوس عليه ثانية، و لكنّني بقيت واقفا على حذر و حيطة.

لم تتفوّه بأدنى كلمة، و لا حتّى بإيماءة، بل ظلّت مسترخيّة على سريرها، توالي الإستماع إلى بوحي الحارّ :

– ...كم كان صعبا غيابك عليّ! و الأصعب من ذلك كلّه، تلك اللّيلة اللّيلاء التي قضيتها على بياض، ظلّت على نصاعتها و لم أخط عليها حرفا واحدا، مؤرّقا بلظى طيفك، بعد أن تعذّر أمر لقائي بك، لقد كانت دامسة الظّلام، كالحة السّواد، فاحمته، و لا مبالغة..!

كان صعبا عليّ أن أسبل جفنيْ قريرا، و طيفك لا يكاد يبرح خيالي، و لا يتزحزح عن بالي، ما انفكّ يأخذ بكلّ مجامع النّابض الولهان هذا، المتيّم بجوى صبابتك، المعنّى بغرامك يا زهرة العمر! و عبق شذاه الفوّاح! و يا بهجته، رونقه و نضارته!

عاودت المحاولة تلو الأخرى، طمعًا في أن أستدرج الكرى إلى مضجعي، فلم أقوَ على ذلك تماما، خانتني شجاعتي للوقوف له النّدّ للنّدّ، و مقارعته و منازلته بندّيّة، طيف غيابك عنّي طيلة تلك الأيّام، استحال أرقا يقضّ مضجعي عند كلّ ليلة ليلاء..

و في لحظة أشبه بلحظات اليأس، و انقطاع الرّجاء و فقدان الأمل، تحامل عليّ الظّنّ و ساورتني الشّكوك، و حامت حولي

الهواجس، إلى حدّ أن اعتقدت أنّني فاقدك لا محاله..

غيابك كان يملأ كلّ المكان، و طيفك، بالمقابل، كان يوالي غاراته عليّ غارة بعد غارة، غازيا محتلاّ كلّ مساحاتي، كنت لا أفكّر إلاّ فيك و بك، عقلي و قلبي كانا معك معًا، خلا بالي إلاّ منك، كنت تملئينني حتّى الأعماق، تغوصين فيْ إلى القاع، فأنت من كان يعبّئ أنفاسي اللاّهثة، بحرقة الشّوق و لوعة الاشتياق، فأنّى للكرى أن يعلن هدنة مع الأرق و هو خصيمه العنيد و عدوّه اللّدود، هي صفقة أيّ محارب مهزوم و منكسر بالتّأكيد، بعد أن يكون قد عانى الويلات، في ساح الوغى حيث المعركة طاحنة، لا تذر و لا تبقي، و هذا طيفك يلوّح لي بالبياض ؟! كيف لي أن أخلد للسّبات، و هذا غيابك الحارق، اللاّفح، الموجع، راية ترفرف خفّاقة في علياء الوجد ؟!

و في غضون ذلك، كلّ الذي كنت أرجوه، أن يعجّل هذا اللّيل البهيم المدلهمّ، السّادر في صمته و وجومه، بقدوم نهار جميل، أن تنجلي ظلمته الدّامسة، و تنقشع غشاواته الصّفيقة، كي يسفر عن صباح رائع، بهيّ الطّلعة، ضاحك الثّغر، و مشرق القسمات...

26

لم ألاحظ عليها شيئا حتّى الآن، فقد كانت مستلقيّة على سرير النّوم، و رأسها مرفوع إلى أعلى وسادتين مغطّاتين بإزار ورديّ اللّون، متلحّفة لحافا أبيضَ ناعما، زانته بعض الزّخارف الجميلة، كانت مرسومة على أطرافه.

أدهشني أنّها صبرت على الإصغاء إليّ، كلّ هذا الوقت الذي استغرقه حديثي معها، ممّا شجّعني على المضيّ قدما، بحيث تابعت بوحي الحارّ، الدّافق بشغف كبير، إلى حين أن أثارني ذلك الجرح المتورّم، الذي كان موشوما على الجانب الأيسر من جبهتها، حين أدارت وجهها يمينا، و لم أنتبه إليه سابقا، فقد كان متخفّيا عن ناظري.

أضع يدي على جبينها الجريح، و أقول مواسيا :

– لا بأس عليك! سلامات! مجرّد جرح بسيط و ستتعافين، إن شاء اللّه بعد أيّام من الآن، و تعود مجارينا إلى عهدها الأوّل، أليس كذلك؟!

– .....

قلّة تجاذبها الحديث معي، كان مبعث قلقي و حيرتي، فما وراء كلّ هذا الصّمت الذي ظلّ يلازمها ملازمة الظّلّ لصاحبه،

منذ مجيئي إليها !؟، وماذا خلف كلّ هذا البرود، الذي يوشك أن يكون مميتا، فقد استقبلتني به منذ اللّحظات الأولى من حضوري إليها، على غير ما جرت به العادة!؟

هل في الأمر شيء، أخطر ممّا تصوّرت حتّى الآن!؟ هل هي مريضة مرضا عاديا، بسيطا، تتلقّى العلاج لتمتثل للشّفاء، بعد ذلك قريبا !؟ هل هذه هي كلّ الحكاية أم أنّ هناك حكاية أخرى، أبعد من ذلك و أخطر بكثير، أنا في جهل مطبق عنها..!؟»

أتحدّث متسائلا بفضول من ينشد الصّدق، و يسعى ما وسعه التّفكير، في القبض على خيوط حقيقة، حجبتها غيوم دكناء، لا تودّ الانقشاع عنها إلى غاية اللّحظة، و كان لزاما عليّ أن أجليها، بمزيد من علامات الاستفهام، طلبا للتّوضيح و كشفا للمستور..

كنت كمن يبحث عن شيء مخبّإ، بطريقة جيّدة لا تثير الرّيبة، مطمور في جوف الأرض عميقا، و أنا في كلّ ذلك، لا أبغي غير الحقيقة، كلّ الحقيقة، مهما يكن من أمر، و أيّا يكن الثّمن..

قالت في رجاء خائب، بائس، يكتنفه اليأس :

– لو توقّف الجرح عند هذا الحدّ، لهان الأمر و تيسّر، و لكنّ المصيبة...؟!

انقطع سيل استرسالها فجأة، حين أحسّت بالكلمات تختنق في صدرها، و تفرّ من شفتيها مدبرة، و بالدّموع تتجمّع في مآقيها، في حين أنّني وقعت شبه مصدوم، بعد أن ترامى

إلى سمعي توضيحها، هذا الذي يحمل بين دفّاته، أكثر من علامة استفهام و تعجّب كبرى.

صحت متأوّها، متوجّعا، كمن لدغته أفعى :

- ماذا!؟ مصيبة !

التفتت إليّ ببطء متردّدة، حين تأهّبت أخيرا، كي تجهر بالسّرّ الدّفين، عندما كنت أنظر قدّامي، و فمي مزموم، و أنفاسي محتبسة، و أعصابي منقبضة، بيْد أنّها، في الختام، طأطأت رأسها في حيرة، و لمْ تقوَ على التّفوّه بشيء، في حين ارتفع حاجباي، و تسارعت نبضات قلبي..

ملامح وجهها جملة و تفصيلا، منذ أوّل استقبالها لي بفتور تقريبا، أوحت لي أنّني مقبل على رزيّة أجلّ من أن تُوصَف، حتّى أنّني لم أعد قادرا على إخفاء توجّساتي المتنامية بمرور الوقت، فقد بدوت كمن يتلقّى خبرًا صاعقا عن كارثة ستقع، لا محال، بعد حين.

عدت ألتفت إليها، بعد أن أشحت عنها بوجهي، بِتوجّسِ مَن سيُصدَر بشأنه، لاحقا، حكمٌ بالإعدام و في أحسن الأحوال حكمٌ بالمؤبّد..

- ماذا هناك ؟ خبّريني ؟

الدّموع الحارّة التي تتجمّع في مآقيها، سرعان ما تنحدر على خدّيها كاوية، كانت البديل لإفصاح لمْ تقوَ عليه الكلمات، ثمّ أجهشت بالبكاء بعد صمت دفين، شهقت له أنفاسها، و هالني منظرها فقد أفجعني حقّا، و بدلا مِن أن أعود إلى استفهامي، رحت أواسيها و أترجّاها أن تتوقّف عن

النّحيب، في حين أخذت هي منديلا كان إلى جانبها، تجفّف بها دموعها المتهاطلة، ثمّ لست أدري كيف صرخت في وجهها بحدّة ملتاعة :

– هل فعلها الأوغاد ؟!

انفلت منّي التّساؤل، خرج من فمي بغتة، مثل رصاصة طائشة، انطلقت فجأة من فوهة مسدّس، لم يحترس صاحبه من الزّناد جيّدا، عقبها أدرت بوجهي، و لم يكن يظهر منه، إلاّ صورته الجانبيّة، دون أن أنتظر جوابا لسؤال، تمنّيت أن يظلّ بلا ردّ، سرّا لا يباح، ثمّ أنصرف صافقا الباب خلفي.

لمّحت لي بشجاعة بالغة، بما كنت قد حدسته قبل اللّحظة، ربّما، وليتني ما حدسته :

– إنّه القدر!؟

و للحظة غير قصيرة، بدوت مذهولا من جرأتها هذه، ثمّ قلت معلّقا بصوت خفيض، راعش، كأنّه النّفس الأخير، لرجل يحتضر بعد أن قربت ساعة رحيله :

– أوضحي لي الأمر أكثر ممّا هو عليه الآن، لا تتحدّثي إليّ بالألغاز، رجاءً.

بعد لحظات ترقّب، لم يكن بالوسع إلاّ أن تؤوب إلى ألغازها مجدّدا :

– ..و الآن، و قد حدث ما حدث، هل نؤجّل موعد الزّفاف، أم ترانا نلغيه تماما، و نشطبه من أجندة المواعيد، و نعتذر للمدعوّين المفترض حضورهم إلى حفل الزّفاف !؟

– ماهذا الكلام ؟!

لم تأبه لتدخّلي هذا، بل واصلت ما تصوّرته أنا هذيانا :

– على من أشفق الآن ؟! و من أولى برثائي يا ترى ؟! أأنا التي كنت على مرمى حجر من الموت، و لم تكن نجاتي منه إلاّ بأعجوبة، بقدرة قادر قدير، أم أنتَ الذي نُكّبت فيْ و رُزئت بيْ ؟!

سحبت نفسا عميقا، ثمّ تنهّدت قائلا :

– عدنا إليها كرّة أخرى، ما كلّ هذه الأحاجي !؟

لم تكترث لاعتراضي هذا، بل أردفت قائلة بجفاءٍ مَنِ اسْتسلم لواقعٍ كريه، لا حيلة له فيه :

– هكذا هي الحياة، لا ندري في أكثر الأحايين، ما الذي تخبّئه لنا، و نحن بعد مطمئنّين إليها، مأخوذين بلحظات الزّهو و السّرور، و الثّقة الزّائدة في مباهجها و مسرّاتها.

ابتلعت ريقي بصعوبة، ثمّ قلت بنفاد صبر و مرارة :

– كفى ! كفّي عنّي هذا ! أريحيني ! لا تعذّبيني أكثر، رجاءً !

و للتّوّ امتدّت يدها إلى اللّحاف، تسحبه عن ساقها اليسرى، التي تركت مكانها، و لم تعد تشغل حيّزا، عندئذ هالتني بشاعة المشهد، لم أتمالك نفسي أن صحت بألم و حرقة موجعتين، كأنّهما النّصل الحادّ، و هو يخترق اللّحمة الطّريّة :

– ما هذا !؟ ماذا أرى !؟ يا إلهي ! لا أكاد أصدّق، بل إنّني لا أودّ مطلقا تصديق ذلك..

غلبتني عبراتي فأجهشت بكاءً على الفور عند رأسها، كأيّ طفل يُصَاب باليتم على حين غرّة..

الصّدمة كبيرة، أجلّ من أن توصف، ما من شكّ في ذلك، الخبر أكثر من جارح، يقع عليّ صاعقا، ينقضّ عليّ مثلما ينقضّ أيّ متوحّش، مفترس على فريسته المبتغاة المشتهاة، يصدمني في أعزّ النّاس، يختطف منّي حلما نضرا، يسحب منّي غدا يانعا، مورقا، موعودا بكلّ المباهج و المسرّات، بكلّ العنت و القسر.

لِلَحظات تطول و لا تقصر، بدوت غائبا عمّا حولي، لا أعي شيئا تقريبا، و كأنّ الأرض، بغتة، انشقّت فابتلعتني، و لولا بقيّة من تماسك لتهاويت مغشيّا عليّ، ثمّ، لم أفق إلاّ على صوتها المختنق الأنفاس، المتنهّد النّبرات :

– قدري..أن أمرّ بذلك الشّارع، و في ذلك اليوم المشؤوم بالضّبط، و أنا لا أدري أنّ فاجعة في انتظاري، ستحلّ بي بعد حين، و في رمشة عين.

صحت ملء حنجرتي، أصبّ كافّة غيظي دفعة واحدة :

– أيّ كابوس هذا..؟! كيف حدث لك !؟ كيف !؟

هزّت رأسها بمرارة، و الدّموع الحارقة ما انفكّت تنحدر من مقلتيها، و هي تقول بأسًى موجع، ساردة عليّ بعضا من فصول فاجعتها : « مساء ذلك اليوم الأسود، كنت عائدة من الجامعة المركزيّة إلى البيت، كالعادة، وبغتة، رعد صوت مجلجل، فاهتزّت المقهى المقابلة لتمثال «الأمير عبد القادر»، نتيجة عنف الدّويّ الذي سُمِع على مقربة من النّصب التّذكاريّ، الذي يتوسّط شارع «العربي بن مهيدي»، و عمّت الفوضى و انتشر الرّعب، بعد أن تهدّم الجزء الخارجيّ للمقهى، و تطايرت

أشلاؤه على بعد أمتار، ثمّ هوت حطاما، و تعالى الصّراخ مترامیا من هنا و هناك، ممزوجا بعويل مرّ متقطّع، و وجدتني أحاول،.....،....

بالكاد عاودت سردها بعد برهة من الصمت، و الدموع تخنقها : «..أحاول..القيام، لكنّني..لكنّني لا أستطع، اكتشفت أنّني عاجزة عن ذلك، فالجرح كان غائرا في ساقي اليسرى، و لا شكّ، ثمّ غشيتني نوبةُ فقْدٍ لِلْوعي، بعد لحظات غير قليلة، و بالكاد حين فتحت عينيْ بصعوبة، أحسست بالدّم ينزف منّي، كنت أئنّ، أتلوّى من فرط الألم الذي ظلّ يعتصرني مثل حبّة اللّيمون، بعدها لم أعد أعي شيئا، فقد فقدت وعيي كرّة أخرى، إلى أن فتحت عيني، ذات صباح، لأجدني فوق سرير العلاج، أثناءها كنت أحسّ أنّ شيئا ما، قدِ انْتُزع منّي...

يرتفع المنديل إلى وجهها، و عبثا تحاول الأنامل الرّقيقة، المرتعشة، تجفيف دموع الوجه الباكي، المتغضّن، ثمّ تسترسل في حديثها عن الفاجعة التي ألمّت بها: «أذكر أنّ الممرّضة، بعد بضعة أيّام، جاءتني بأمر من طبيب المصلحة، و معها كرسيّا نقّالا تجرّه، مرفوقة بزميلة لها من نفس المصلحة، ملقية عليّ تحيّة الصّباح : »

(- صباح الخير..!)

لم أقوَ على ردّ تحيّتها، اكتفيت بأن أومأت إليها إيماءة خفيضة، في حين استرسلت في حديثها معي :

(- كيف قضيت ليلة أمس ؟ هل نمت جيّدا ؟)

(- لا بأس !)

(- أعتقد أنّ الألم قد خفّ عنك نوعا ما ؟)

(- يبدو لي ذلك..)

27

ران علينا الصّمت، اكتفينا في هذه الأثناء العصيبة، بتبادل نظرات تلمّح أكثر ممّا تفصح، ثمّ سرعان ما توجّهت إليّ قائلة :

– ستتركين الفراش، يا آنسة ! إلى حين عودتك إليه، سنجري عليك بعض الفحوصات، كرّة أخرى، هذا العمل روتينيّ، غير أنّه ضروريّ لرصد ما استُجِدّ على الوضع الصّحّي العامّ.

حين لمحت الكرسيّ المتحرّك، و هي تسحبه نحوي لأجلس عليه، صحت مذعورة كمَن يحاذر شيئا تعافه نفسه :

(– هذا الذي بين يديك، ماذا يفعل هنا !؟ لِمَ أحضرته إليّ !؟)

ثمّ، لست أدري كيف انخرطت في نوبة عصبيّة، عصفت بمرفأ قلبي، كاد يأتي حريقها على غابة أعصابي :

(– لا ! لا ! لا أريده، رجاءً، ابتعدي من هنا..!)

عبثا حاولت الممرّضة استمالة قلبي، و تهدئة أعصابي التي انفلتت من عقالها تماما، و بشكل سافر لا يمكن حجبه أو

الغطّ عليه، فقد عدت إلى ما كنت عليه آنفا، بعد لحظة تراخٍ لم تعمّر طويلا، أصيح في وجهها بحنق و غيظ، كادا يطيرانً معًا بصوابي و يعبثان برشدي :

(- خذيه بعيدا عنّي، لا أريد أن أراه، صدّقيني، لا أريد، لا أريد، لا أريـد، لا، لا أريـ...د..)!

تمدّدت نبرات صوتي و تراخت معًا، كان ذلك إيذانا لوهن أصاب قواي، تلك اللّحظة بدت فرصة سانحة، تحيّنتها الممرّضتان في محاولة لإجلاسي على الكرسيّ المتحرّك، غير أنّهما فوجئتا مرّة أخرى بمقاومتي و لو على وهن، و بصراخي ممزوجا بنشيج مرّ، تناهى صداه إلى العنابر المجاورة، يفصل صفّيهما رواق متوسّط السّعة، نصف حيطانه مغطّاة ببلاط سماويّ الزّرقة.

هرع إليّ كبير الأطبّاء في المصلحة الطّبّيّة، و حين وقف عند رأسي، بمئزره النّاصع البياض، و نظّارة غير سميكة فوق أرنبة أنفه، أنشأ يحدّثني قائلا، في محاولة لطمأنتي :

(- اِهدئي ! يا آنسة ! اهدئي !)

قاطعته بصوت محتدٍّ، بُحَّت حنجرتُه، تخنقه العبرات :

(- أهذا الكرسيّ لي ؟! لي أنا !؟ لا أريد أن أصدّق أنّه لي، هو ليس لي قطعا، مخطئون أنتم، أليس كذلك ؟!)

يحاول أن يهدّئ من روعي، بما يُتيحُه له ذكاؤه و تُوفِّرُه له خبرتُه، في أوضاع صعبة و مواقف حرجة كهذه، و يأبى هذياني إلاّ أن يواصل مشواره في رحلة المعاناة و الأوجاع إلى منتهاه :

(- ..لا تقل لي أنّ هذا النّقّال أنا صاحبته، لا ! لن أصدّق أنّه لي، إيّاك أن تتفوّه بهذا..و الآن، لِمَ تتفرّجون هكذا، قلت : أبعدوه عنّي، لا حاجة بي إليه، ليس لديّ الرّغبة حتّى في مجرّد النّظر إليه طرفة عين، لا لونه يهمّني و لا شكله، بل و لا حتّى حجمه، أريحوني منه بإبعاده من هنا، لا أريد أن أراه، هل وصلت الرّسالة ؟!)

بعد هنيهة، و بنبرة حزينة، مؤثّرة، تناول الطّبيب الجرّاح الكلمة، منتزعا إيّاها منّي، و هو بالكاد يحاول إطفاء حريق أعصابي :

(- كلّ شيء سيتمّ على ما يُرام، اهدئي، نحن بحاجة، فقط، إلى بعض الفحوصات نجريها عليك، و عليه ستنتقلين على متنه إلى مصلحة الكشف بالأشعّة، ثمّ تلتحقين بسريرك مجدّدا، كما سيعود هذا الكرسيّ المتحرّك أدراجه، هذا كلّ ما في الأمر.)

(- سيّدي ! عذرا ! هل هذا وعد..!؟)

ألا تصدّقين.. ؟!)

(- هل تقطع على نفسك بأنّ هذا الكرسيّ، لن يكون لي مطلقا، بعد الفراغ من الكشف عليّ بالأشعّة..؟!)

(- لك ذلك..ثمّ، لاحقا، نرى ما سيتعيّن علينا القيام به في القريب العاجل.)

في نفس اليوم، و بعد بضع ساعات، كانت قد مرّت على فحصي، عاد الطّبيب الجرّاح إليّ، و هو يقول متحدّثا إليّ بنبرة المتفائل :

(- لا بأس عليك، يا آنسة ! كلّ دواعي الخطر انتفت تماما ، و بشكل نهائيّ، سنمدّد فترة نقاهتك ببضعة أيّام أخر، ثمّ، سيكون بالوسع أن تلتحقي بأهلك.)

كانت دموعها ، في هذه الأثناء، قد انقطعت تماما ، تنهّدت، و هي تومئ إلى السّاق المبتورة :

- لا داعي إلى سرد النّهاية، فهي قبالتك، تفصح عن نفسها ، هنا كانت ساقي، ذات يوم، و لم تعد، تركت مكانها إلى الأبد..

أحسست بألم ممضٍ يمزّق قلبي إربا إربا ، قبل أن أعلّق بكلّ ما بداخلي من أسىً :

- صعب ! صعبٌ جدّا ، أن يفقد الواحد منّا جزءًا عزيزا من سلامته و صحّته.

- ثمن دفعته و لم أقترضه من أحد !؟

تصمت قليلا، ثمّ تتابع قائلة في ألم دفين، موجع، حارق : «حين جاء والداي لعيادتي، كان ذلك قبل أن تُبتَر ساقي، تردّد والدي عن نقل النّبأ إليّ يومها ، حاول أن يفعل مرارا ، لكنّ ورقة الاعتراض التي ظلّت والدتي، تشهرها في وجهه، جعلته يتراجع، في النّهاية لم يكنِ الأمرُ ليُستسَاغ، لو ظلّ مخفيا عنّي الأمر، أذكر أنّه أفضى إليّ بالقول : »

(- كنت لن أسامح نفسي، لو أنّني تماديت في كتم الخبر الفاجع المفجع عنك، كان يجب أن أخبرك به طوعا أو كرها ، لا خيار، وقد فعلت، أنبأتك بالحقيقة و بكلّ ما تناهى إلى سمعي، من الطّبيب المشرف على إجراء العمليّة، حمدا للّه أنّها تكلّلت بالنّجاح.)

تتوقّف متنهّدة، برهة من الزّمن، ثم تعود إلى سردها، تأتيه اضطرارا لا اختيارا، و بما أنّني كان يجب أن أعلم بكلّ التّفاصيل، فقد ظللت سادرا مع حكيها، مشدودا إليه، كأنّني مصلوب عليه، حتّى هُيِّئ لي أنّني لن أُزحزَح عنه أبدا، ما حييت، أصغي إليها مقتفيا أثرَ الفاجعة خطوة بخطوة، و نفسا بنفس: « حدّثني والدي قال : «قال الطّبيب، مُعلِما إيّاي : »

(- كان لها الموت بالمرصاد، فنجت منه بأعجوبة ! و استكمالا للإبـ...)

قال والدي : «قاطعته في الحين معلّقا، و الشّكر للّه لا يسعني : »

(- نجت من موت محقّق ! الحمد للّه ! الأعمار بيد اللّه !)

عن والدي قال: «سكت الطّبيب لحظة، كأنّها وقفة للاعتبار، ثمّ انبرى يقول مجدّدًا، و أنا كلّي آذان صاغية، بل إنّني كنت أتابع كلامه بكلّ جوارحي : »

(- ..و للّه الحمد، قلت : استكمالا للإبقاء على حياتها، ارتأينا، أنا و فريقي الطّبّي، أن نجريَ لها عمليّة جراحيّة، بموجبها تُبتَر ساقها المصابة، خوفا من المضاعفات التي قد تشكّل خطرا عليها لاحقا، القرار لم يكن سهلا، و لكنّنا فضّلنا أن نتّخذ هذا الموقف المناسب، و كان يجب أن نفعل، حين أوصلتها سيّارة الإسعاف إلى مصلحة الإنعاش، ساقها اليسرى بدت محطّمة تقريبا، و بعض عظامها كانت مفتّتة بعض الشّيء، تعرّضت إلى نزيف حادّ، كان لابدّ من إجراء العمليّة، حاولنا تفادي البتر، ما وسعنا الجهد، و لكنّني أنا و فريقي الطّبّي، عجزنا عن إعادة

اللّحمة إلى الشّرايين، رغم ما بذلناه من جهود مضنية، و ما قضيناه من ساعات داخل غرفة العمليّات..)

– بمجرّد أن فرغ والدي من إذاعة الخبر عليّ، بكلّ ما حواه من تفاصيل، شعرت أنّ الدّنيا قد أظلمت في وجهي، لم أعد أرى غير لون السّواد الفاحم، كان لديّ انطباع قويّ، بأنّني انتهيت تماما، حتّى أنّ الحياة و الموت كانا قد انتفى ضدّهما في ذهني و في نفسي، لم أعد أرى فرقا بين وجودي و عدمي، تناقُض معناهما كان قد استوى عندي.

تملّكني الإحساس بأنّ مستقبلي قدِ انتهى، و هيّئ لي أنّ حياتي قد انهارت، كما ينهار جبل ثلجيّ، تحت ضربات موجعة لشمس ساطعة، و لم يبق لي شيء عزيز، أحرس عليه من الفقد، و في اللّيل حين وضعت رأسي المتعب على الوسادة طلبا للنّوم، لم يغمض لي جفن، عبثا حاولت أستدرج الكرى إلى مضجعي، غير أنّ مسعاي مُنِيَ بهزيمة نكراء.

تصمت برهة، بعد أن داهمتها شهقة بكاء، ثمّ توالي إفضاءها، في كثير من الأسى :

– لك الآن..أن تتصوّر.. أنّك لن تحيا من الآن فصاعدا إلاّ برجل واحدة، بعد أن بُترت الرّجل الأخرى..!؟

زفرت زفيرا طويلا، قبل أن تستطرد قائلة، و الأسى يمعن في افتراسها :

– لك الآن..أن تتصوّر.. أيضا، أنّك لن تستطيع أن تقف إلاّ على رجل واحدة، واحدة و فقط..!؟

حتّى هذه اللّحظة لم أكن لأجرؤ على التّفوّه بشيء، فقد حلّ الصّمت المطبق محلّ أبجديّات اللّغة، في هذا الغضون، أخذت رأسي بين كفّيْ، كمن يحاذر شيئا كريها، و أنا بالكاد أقول :

– أتصوّر ذلك..يا عزيزتي ! إنّه لأمر في غاية الحرج، بل هو مرعب أن يكون المصير على شاكلة كهذه.

28

الجوّ بالغرفة ظلّ ملغّما بالشّجن، و لعلّه تزايد و تكاثر، مع هذا الوجع الذي ما يزال يوالي صهيله، كفرس برّيّ جامح لا يقبل التّرويض، حتّى بعد فراغها من بوحها الجريح، الدّامي هذا، الدّافق ألمًا و أسًى، المثخن جرحا يأبى حتّى الآن أن يندمل.

صمتٌ مطبق مميت، يسود و لا يُساد عليه، يطوّق الجدران الأربعة، حتّى أنّ الغرفة خِلت أنّها قدِ اسْتحالت إلى ما يشبه الزّنزانة، لم نكن نحن سوى نازليها على غير الرّحب و السّعة، يفترسنا الألم و يعتصرنا الأسى، و الوحدة القاتلة تنصب خيمتها حولنا طوقا لا يمكن الفكاك منه.

لم يكن بالوسع تمزيق هذا السّكون الموجع، الأليم، غير أنّ خيوطه المتشابكة التي نسجتها فاجعة ذلك اليوم المشؤوم، سرعان ما شرعت تتمزّق، بعد أن تناهى إلى مسمعها تغريد طائر الحسّون، ثمّ ما لبثت هي، في إشارة غير محسوبة، جاءت عفو الخاطر، أن أومأت إلى العصفور الحبيس، و لست أدري، بعد، إن كنت معنيّا بالتفاتتها هذه أم لا :

– ليس إلاّي، و هذا الحسّون، أرنو إليه بين الفينة و الأخرى، أتملاّه بوجه شاحب، منطفئ النّظرات، حين يكفّ عن الغناء، و رغم عزوفه عن الشّدو، في أكثر الأحايين، إلاّ أنّني أتسلّى و أتعزّى بوجوده معي، هناك على الأقلّ ما يواسيني، صارفا عنّي بعضا ممّا ألوكه من وحدة و أجترّه من سأم..

تصمت لحظة ثمّ تطنب في الحديث، كرّة أخرى، و هي لا تزال، إلى هذه اللّحظات، ترنو بنظرها المتّشي بالحزن إلى القفص، حيث العصفور قابع في سكون لا حراك له تقريبا :

– من قبل، كانت حركاته تتّسم بالطّلاقة و الانسيابيّة، أصغي إلى زقزقته الرّخيمة بشغف متزايد، لطالما شنّف أذنيْ بعذب صداحه الطّروب، إلى حدّ أن صرت كلفة به، تغريده، دوما، يملأ قلبي مسرّة و غبطة، خسارة..! منذ أيّام و أيّام فقد متعة الشّدو، لم يعد يزقزق كما كان، بل و رَكن إلى السّكون، فلا رفّة جناح و لا توثّب و لا نطّ، و لا أيّ شيء من هذا القبيل، إلاّ في ما ندر، الطّيور على أشكالها تقع، كما يقولون، هذا المثل ينطبق عليّ الآن تماما، و مع كلّ ذلك، فقد أسعدتني حنجرته الذّهبيّة، بما جادت و تجود به عليّ و لو نزرا قليلا..

و لست أدري كيف امتلكتني الشّجاعة، لأفاتحها الحديث من جديد، و أقتحم عالمها الحلزونيّ هذا، الذي أرادته منغلقا، منكفئا على ذاته، مستفهما :

– ربّما ستنفتح شهيّته للغناء، في مقبل الأيّام ؟

– آمل ذلك، من صميم الفؤاد، و إن كنت أرى مأموريّة ذلك، ليست بالأمر الهيّن.

– دعي ذلك للأيّام، فهي كفيلة بإحداث الطّارئ، فقط، كوني مثله، غرّدي بين الفينة و الأخرى، رغم الأصفاد التي تشدّك إليها، في انتظار معزوفة الأمل..

– هذا الكلام جميل و شاعريّ، يبعث على التّفاؤل، و مع ذلك تبقى التّغاريد المكبّلة صفرا على اليمين و صفرا على الشّمال، لا تكاد تساوي، مجتمعة، تغريدا واحدا يترامى إلى الأسماع، من وسط الخضرة اليانعة، المورقة، المثمرة، البهيجة..

– حصل خير، على أيّ حال، لقد عادت إليك الحياة، بعدما أوشكت على مفارقتك إلى غير رجعة، و هذا، بحدّ ذاته، شيء لا يمكن إلاّ تثمينه و تقديره، إنّه لشيء أكثر من رائع، أن توهَب لنا الحياة ثانية، كنّا على وشك أن نفقدها..

– بعد أن فقدت ساقي، طبعا..؟!

– حريّ بك أن تحمدي اللّه على نجاتك من موت محقّق، شيء أفضل من لا شيء إطلاقا..

– كان الأفضل لو قضيت نحبي، الموت أفضل من حياة عرجاء، و الموت أهون من عيشة فيها ذلّة و مسكنة، و من حياة لا تنطوي إلاّ على العجز و القصور..

– لا تتفوّهي بهذا، رجاء..!

– قدري، الآن، موصول بهذا الكرسيّ النّقّال، في انتظار رجل اصطناعيّة أرتديها، أو عكّاز، في أسوأ الأحوال، أستند إليه متّكئة بكتفي عليه..

– سيهون كلّ شيء، فأنا أحبّك، سأعوّض فقدك الغالي هذا بحبّ مضاعف، ثقي أنّني سأفعل..

– حبّ بلا أمل، هذا ما تعنيه، حبّ من طرف واحد، و هذا يعذّبني، يمزّقني، و يقتلني..

– بل حبّ من طرفين، مهما يكن من أمر، و لا أحد بوسعه أن يقف أمام حبّنا..

– امح من رأسك أنّك أحببتني يوما..

– تطلبين منّي المستحيل، إلاّ هذه فلا و ألف لا..

– كم هو سيّء حظّك معي..! و الأسوأ حظّي أنا معك بعد الفاجعة !

– حين يستغرقني التّفكير في حياتي الطّارئة هذه، أكاد أصاب بالجنون، ليس سهلا أن أتقبّل وضعي الجديد هذا..

– ما من شخص على وجه الأرض، إلاّ و كان عرضة لمصير شبيه أو أعظم منه !

– بعد كلّ الذي حدث !؟

– لِمَ لا ؟! ما المانع من ذلك ؟!

– أمنيّة كهذه، لا أرى الآن إلاّ أنّها صعبة المنال..

– دعي عنك الأفكار اللّعينة هذه، انتزعيها من دماغك و إلاّ قضت عليك و عليّ قضاءً مبرمًا..

– يبدو لي أنّك لا تريد أن تقتنع، تخشى مواجهة واقعٍ ماثل للعيان، طرأت علينا فيه أشياء لا يمكن تجاوزها، تهرّب من وجعٍ حقيقةٍ لا يمكن الغطّ و النّطّ عليها..

– دعي الأمل يورق في نفسك و يزهر، ابقي على شعلته الوضيئة، وحده هو النّور الذي يسطع في ظلامنا الدّامس هذا،

الذي يأبى أن ينجلي، و لا يودّ أن يسفر عن صباح مشرق، بهيّ الطّلعة..

- ماذا تفعل بأمل مبتور ؟!

- أووه ! كفى ! رجاءً، كفى ما سمعت، أوجعت رأسي، تتحدّثين بصيغة الماضي دائما، و كأنّ العالم على وشك الفناء، الدّنيا بخير، بخير، ما دمت أحبّك، لا تكوني عنيدة، بوسعنا أن نبني عشّا لنا نسكن إليه، من بين نساء العالم اخترتك أنت..

- بل بوسعك أن تتزوّج من غيري، بواحدة ليست ذات عاهة على شاكلتي..

- سأتزوّجك أنت، و لن أرضى عنك بديلا..

- لا أريد أن أنجب مخلوقا ناتج عن كره، عن وضع غير مريح بالنّسبة لي على الأقلّ..

- لقد خطبتك من والدك، و لابدّ من عقد القران لاحقا، طال الزّمن أم قصر..

- الأفضل لك أن تعمد إلى فسخ الخطوبة، لا مناص من ذلك، هذا قدرنا المحتوم..

- بل قدرنا أن نتزوّج، و لا أحد بإمكانه أن يفرّق بيننا، سأتزوّجك، و ستكونين، بحول اللّه، ربّة الدّار و رفيقة الدّرب..

لم أكن أودّ أن أستغرق في خوض غمار نقاش، بان لي عقمه، قد لا ينتهي إلاّ على بدء، فكان أن لذت بالصّمت أحتمي به، في حين شرعت هي تتفوّه بكلمات لم أفهم منها شيئا تقريبا،

و لكنّ الدّموع التي راحت تنحدر على خدّيها، كرّة أخرى، أثارتني، فهتفت بها :

– يكفي دموعا ! لن نمضي بقيّة عمرنا في النّواح و الملامة و البكاء على الأطلال، ما حدث حدث، علينا أن نحوّل المأتم إلى عرس، عرس حقيقيّ نتباهى و نباهي به..

في هذه الأثناء انطلقت حنجرة الحسّون بالتّغريد، بدَا شدوه حانيا، رقيقا، صافيا، متّصلا بعضه ببعض، غمرنا بكلّ دفئه و فاض علينا بكلّ عذوبته..

و ما لبثتُ أن همستُ إليه، في بادرة جاءت من تلقاء نفسها :

– جميل ! رائع ! واصل تغريدك أيّها العصفور الجميل ! هذا ما يعوزنا حقّا، كفانا دموعا و دماءً و مناحات ننتدب لها النّادبات..

و سرعان ما علّقت بمرارة :

– ليس لي غيره، هناك ما يواسيني على الأقلّ، لكم أطِيب نفسا حين يترامى إليّ شدوه ! و لكنّه في الغالب يظلّ صموتا، منذ أيّام أخذه عزوف عن الغناء..

ثمّ و أنا أحدّثها مشيرا إليه :

– أنظري إليه، إنّه يعانق الحياة منطلقا بصداحه، على الرّغم ممّا يعاني، كوني مثله على الأقلّ..

– ذات يوم سأفلته من قفصه، ليعيش طليقا كما كان أوّل مرّة، سأطلق سراحه ليستعيد حرّيته التي اغتصبت منه قسرا و قهرا، و لكن..ماذا عنّي أنا !؟ وا أسفاه ! سأظلّ على ما أنا عليه، هكذا، مكبّلة بهذا القيد اللّعين..

– القيد لا يوجد إلاّ في انهزاميّتك هذه، على كلّ حال، سأكون سعيدا يوم تحرّرين العصفور من قفصه، بل و سأكون أسعد حين تحرّرين نفسك من هذا القيد الذي يكبّل روحك قبل جسدك..

29

راقت لنا كثيرا سمفونيّة العصفور، فقد شنّفت آذاننا، و جعلت توتّرَ أعصابِنا يتراخى قليلا، بعد زحمة الرّأي و الرّأي الآخر، التي لم تخلُ من التّجاذب و التّضارب، و كأنّها استراحة محارب، عاد لتوّه من ساح الوغى، التي ظلّت مشتعلة، حارقة، قاسية، عنيفة، حامية الوطيس، غير أن العصفور توقّف عن تغريده هذا، كان قد عاوده منذ حين، بعد أن أمسك عنه ردحا من الزّمن.

التفتت إليه تناجيه بإمعان : «هذه عادة جريْت عليها، معهود عنك أنّك ما أن تغرّد لِلَحظاتٍ قصيرة، حتّى ينقطع عنّي صوتك الطّروب، لك العذر يا صديقي، كلّ العذر و أوفاه ! الحرّ يفهم الحرّ، و لكنّك لست وحدك في معاناتك الجسام، هناك مَن يشاطرك ذات الوجع، أجل ! هناك مَن يحسّ بما تحسّ به أنت من ألم دفين، كلانا حزين يا رفيقي ! أنتَ سجين هذا القفص و أنا سجينة هذه الغرفة، لا أتدفأ أشعّة الشّمس و لا أتنسّم الهواء الطّلق، و لا أبصر الفضاء إلاّ من خلال نافذة غرفتي هذه..»

في تلك الأثناء تواثب العصفور بين قضبان القفص، يصطدم بالسّياج في كلّ مرّة، و كأنّه يبحث له عن فجوة للنّفاذ، يتحفّز للهروب من هذا القفص الذي ولجه اضطرارا لا اختيارا، و لكنّه لا يتلمّس منفذا يتّسع لخروجه..

– مسكين أنت يا عصفوري ! حرّ ابن حرّ، لا ترضى أبدا بالأغلال، هذا ديدنك، قسما عظما أنّني سأطلق سراحك، هذا في حكم المؤكّد، أقسم أنّني، ذات يوم في القريب العاجل، سأخرجك من زنزانتك، سيكون لك ما تريد، اطمئن، هذا ما عزمت القيام به فعلا، أنا مَن يحرّرك، هذا وعد منّي أقطعه يمينا على نفسي.

انشغلت أصغي إليها دون أن أنبس ببنت شفة، في ما هي ما تزال موالية لإفضائها هذا، مع إضفاء تعديل عليه هذه المرّة، فكان لابدّ من تحويله إلى مجرًى آخرَ، في انتظار مصبٍّ له ختاما :

– هذه الغرفة التي كانت في ما مضى، تملأني أنسا و حبورا و مسرّة، صارت لي مدفنا يضمّ بقايا حلم لن يرى النّور قطعا..

هالني ما سمعت، و هالني أكثر الدّموع الحارّة المنسكبة من مقلتيها المحمرّتين، كاوية تنحدر على خدّيها، فكان أن صحت بها :

– لا تبكي ! كفّي بكاءً يا عزيزتي ! دموعك غالية عليّ، ثمّ إنّها، على أيّ حال، لن تستردّ ما فات، ثقي أنّ هذا الشّتاء بقرّه و صقيعه و جليده، لن يمكث طويلا، سيعقبه ربيع لا يطالُ خضرتَه الذّبولُ..

و بلهجة مبتهجة أضفت :

– سنعوّض كلّ الذي فات، سننهمك كرّة أخرى في التّواصل، مع مباهجنا و مسرّاتنا على عهدنا بها، و لن يحول بينها و بيننا، هذه المرّة حائل..

– .....

– آن الأوان لأن نوالي صداحنا الطّروب مجدّدا، أن نرفّ بجناحينا بعيدا بعيدا في الفضاء، و نحلّق في علياء السّماء، نملأ مسامع الأجواء طربا و حبورا، و نشنّف آذانها بأحلى و أعذب التّغاريد، حان للأزهار أن تتفتّح أكمامها، و تنثر عبيرها في الأجواء، آن للشّجيرات أن تورق و تزهر فتثمر، حان للرّبيع أن يحلّ على عجل، فقد طال تأخّر قدومه عن اللّزوم، حين يؤوب من جديد، سنجعل الدّنيا ملء سمعنا و بصرنا، فنحن و لا شكّ على موعد معه..

فجأة، استرعت طلّةُ والدِها انتباهَنا، تسمّر عند عتبة الباب، ثمّ دلف إلى الدّاخل، كان واضحا أنّ ما دار بيننا قد أثاره فضوله، ظلّ مشدودا إلى وقفته الشّاردة هذه، بعد أن خطا بضع خطوات، كمن يبحث عن كلمات سانحة يتلفّظ بها، حين انعقد لسانه و فرّت الكلمات من شفتيه، و في الحين أشار إليّ بضرورة إخلاء المكان، و الالتحاق به فورا إلى صالة الضّيوف، بعد أن تقدّمني إليها، عندئذ وجدتها فرصة سانحة لأنسلّ من هذا الجوّ الكئيب، و إن كانت مسحة التّفاؤل، قد أضفت عليه بعض الرّونق.

جلسنا سويّة في صمت ساد لِلَحظات، قبل أن يتوجّه إليّ بالقول :

- كما ترى..هكذا هي..منذ ذلك الحادث..
- علقّت باقتضاب شديد :
- ما زالت مصدومة..
- لا شكّ أنّ الصّدمة لطمتها بعنف..
ثمّ، بعد برهة، أضفت قائلا :
- ليست الوحيدة..
- أجل ! كلّنا مصدومون ممّا حدث..
و كمن يستدرك أمرا ذا بال، يخشى فوات أوانه، قلت :
- على أيّ حال، ما حدث لنا ليس نهاية العالم، يحدث مثل هذا في كلّ مكان من العالم، الحياة ستستمرّ، ستستمرّ، كما كان ينبغي لها دائما أن تستمرّ، هذا ما يجب التّأكيد عليه..
بعدها أمسك كلانا عن الكلام، إذ لم يجرؤ أحدنا على استئناف حديث مبتور، لا أدري مَن بتره و لا كيف و لا حتّى متى ؟ و في حركة من يسعى جادّا إلى تلطيف الجوّ، في محاولة لتمليس ما تكلّس منه، عنّ له أن يقوم إلى المطبخ، ليحضر لي فنجان قهوة و بعضًا من كعك، غير أنّني قمت معتذرا له، و بدلا من أن أسير صوب الباب الخارجيّ للمنزل، وجدتني، دون شعور منّي، أتمشّى عائدا إلى حجرتها، و ما أن طللت عليها حتّى بادرتها بالقول، و كأنّها كلمات أخيرة كان لابدّ من ألقي بها على سمعها :
- حياة ! ستستمرّ الحياة..عجلات عربتها لن تتوقّف عن الدّوران، ضعي هذا في رأسك جيّدا، ثقي أنّ الرّبيع قادم، إنّه في طريقه إلينا، و علينا أن نكون على موعد مع مجيئه..

انصرفت عنها دون أن أنتظر ردّا منها، و كمن يتعجّل الانصراف، وقفت عند عتبة الباب الخارجيّ بمعيّة والدها، و أنا أخاطبه قائلا، بعد أن دعكت جبهتي :

- الحاج ! أراكم بخير..

- رافقتك السّلامة يا ولدي !

- إلى اللّقاء..

- أعلم أنّني فخور بك كثيرا !

- .....

حين واجهني الشّارع لم أبصر شيئا، لا الأحياء أحياء، و لا الأشياء أشياء، لم أعد ألمح، على طول الشّارع، إلاّ ظلّها يلازمني، و إلاّ شبحها يطاردني، و إلاّ طيفها يرافقني في كلّ خطوة أخطوها، و إلاّ صدى كلماتها الموجعة، الحزينة، الحارقة، تتردّد في أعماقي، و إلاّ انكساراتها تتناثر بداخلي شظاياها.

بدَا لي الشّارع طويلا، ممتدّا أكثر ممّا كان ينبغي له أن يكون، يلفّني فيه الصّمت المطبق، يتوسّدني سكونه و يتلحّفني، و سرت، مشيت مقرورا، مقهورا، في انتظار مجيء الرّبيع...